مَوْسُوعَةُ

فَوَائِدِ القُرآن الزكِيَّة

سُورَةُ لُقْمَانَ

أ.د خالد بن حامد الحازمي

أستاذ الدراسات العليا بالجامعة الإسلامية سابقاً

موسوعة فوائد

القرآن الزكية

سورة لقمان

أ.د. خالد بن حامد الحازمي

أستاذ الدراسات العليا بالجامعة الإسلامية سابقاً

فوائد سورة لقمان

﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾

﴿الٓمٓ ﴿١﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾ هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ ﴿٣﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٦﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا ۖ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٧﴾﴾

ابتدأت سورة لقمان بِمُثِل ما ابتدأت به بعض سور القرآن الكريم بالحروف المقطعة، كسورة البقرة، وسورة آل عمران، وسورة العنكبوت وسورة الروم. قال تعالى ﴿الٓمٓ ﴾ وهي ثلاثة أحرف من الحروف المقطعة، يعجز عن إدراك دلالتها الإنسان، ليقف مذهولاً أمام ثلاثة أحرف، لا يعرف عنها شيئاً، وليقف على أسلوب لم يسمع به من قبل، ولم يخطر بباله هذا البناء اللفظي العجيب، مما يدفعه شوقاً لمتابعة ما بعد تلك الحروف المقطعة. وأَمَّا عِلْمُ معناها ومرادها فعند الله تعالى، فهي سِرٌّ من أسرار الله تعالى في كتابه، نؤمن بها ونقرؤها كما جاءت. وهي من الذي لا يُفَسَّر. وتُلتمس فوائده. وقد تم ذكر بعض فوائد ذلك في سورة البقرة ولله الحمد والشكر، وهناك من اجتهد في معناها ودلالتها.

ومن فوائد ذلك ما ذكره القرطبي رحمه الله تعالى: بأنها محك واختبار لمن يؤمن ويُقِرُّ بها كما جاءت، وأما الوقوف على فوائدها، فقال جمع كبير من العلماء: بل يجب أن نتكلم فيها؛ ونلتمس الفوائد التي تحتها(١)

فمن فوائد ذلك شد الانتباه، قال قطرب عن العرب: أنهم كانوا ينفرون عند سماع القرآن، فلما سمعوا ﴿الٓمٓ ﴾ و ﴿الٓمٓصٓ ﴾ استنكروا هذا اللفظ، فلما أنصتوا له صلى الله عليه وسلم، أقبل عليهم بالقرآن المؤتلف ليثبته في أسماعهم وآذانهم، ويقيم الحجة عليهم.(٢)

---

(١) القرطبي، لجامع لأحكام القرآن (١٠٩/١)

(٢) المرجع السابق (١٠٩/١)

فلما نزلت هذه الحروف المقطعة بَقَوا متحيرين، فقد خاطبهم بما لا يفهمون، لِيُقبلوا على استماعه، لأن النفوس تتطلع إلى ما غاب عنها معناه، فإذا أقبلوا إليه خاطبهم بما يفهمون، فصار ذلك كالوسيلة إلى الإبلاغ، إلا أنه لا بد له من معنى يعلمه غيرهم، ويكون معلوماً عند المُخَاطب. فهذا الكلام يعم جميع الحروف[1] وهذا يُفيد أهمية التشويق في التعليم، وأهمية لفت الانتباه، وشد ذهن المتعلم والمتلقي والمدعو والموعوظ لما يُراد تعليمه إياه ووعظه وإرشاده ودعوته إليه، أو إخباره به، وإشعاره بحاجته لما سيسمعه، حتى يعلم ما فيه من علم ومعرفة، أو نصيحة، أو غيرها مما يُراد نقله إليه.

وبعد أن ذكر الله تعالى ما استفتح به من الحروف المقطعة، لإيقاظ الأذهان وشد الانتباه إلى إعجاز القرآن العظيم، وبما يثبت أنه من عند الله العزيز الحكيم، أنزله على رسوله محمد صلى الله عليه وسلم، يُشيد عَزَّ وجل بآيات القرآن الكريم، والثناء عليها بما اتصفت به من الأوصاف الحكيمة العظيمة ﴿ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡحَكِيمِ ﴾ فهذه آيات القرآن الْمُحْكَم المبين، فهو مُحكم من الباطل، والخلل، والاختلاف، والتعارض، وقد حكم الله تعالى فيه بالعدل، فأحكامه جميعها عدل، لا جور ولا ظلم فيها، بل هي كمال العدل وأحسنه. وأن مضمونه وأحكامه واضحة جلية، قد أوضح الله تعالى فيها الحلال والحرام، وفَصَّل الحدود والأحكام، وأوضح في كتابه الأخلاق والإحسان، وما يحتاجه الإنسان.

وفي قوله تعالى ﴿ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡحَكِيمِ ﴾ إيجاز وإعجاز بياني في وصف القرآن الكريم بصفة ﴿ٱلۡحَكِيمِ ﴾ التي استجمعت كمال الوصف والثناء لحقيقة ما تضمنه القرآن الكريم، ولِمَا اتصف به مضمونه ومحتواه بالْمُحْكَم المبين. وفي هذا إعجاز وتحدي بأن يأتوا بمثله من الحجج المحكمة، أو يثبتوا أنه غير محكم، وأن حججه وبراهينه ليست بينة الوضوح والمعاني والمقاصد والأحكام والتشريع، فهو إثبات بأن كتاب الله تعالى القرآن الكريم مُحْكَم، قد انتفى عنه الباطل والخلل والتعارض والاختلاف، فليس بعد هذا البيان أبلغ منه آية وحجة لكل ذي عقل سديد.

ومن غزارة المعنى أن مكونات هذه الآية تعطي العديد من الدلالات المتنوعة، بالرغم من قلة عدد كلماتها، فبدأ البيان باسم الإشارة ﴿ تِلۡكَ ﴾ التي تشير إلى آيات هذه السورة، وآيات القرآن الكريم بكامله ﴿ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡحَكِيمِ ﴾ واسم الإشارة ﴿ تِلۡكَ ﴾ يشير إلى آيات هذه السورة باعتبار موقع ﴿تِلۡكَ ﴾ من السورة، قال الإمام الشوكاني رحمه الله تعالى عن ﴿ تِلۡكَ ﴾ في سورة يونس: إنها إشارة إلى

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (١/١٧)

ما تضمنته السورة من الآيات، والتبعيد للتعظيم[١] وأما باعتبار أنها بمعنى: هذه، فتكون بمعنى هذه آيات القرآن. وقال القرطبي رحمه الله تعالى: أن ﴿ تِلْكَ ﴾ بمعنى هذه[٢] فتشمل جميع آيات الكتاب الكريم، وكلا الوجهين صحيح الدلالة، مما يفيد عمق البناء البلاغي للنص الكريم، بحيث أعطى دلالتين، أو وجهين صحيحين، إذ لا تضاد بينهما، وهذا من الإعجاز البياني في القرآن الكريم. وفي اسم الإشارة ﴿ تِلْكَ ﴾ ما يفيد التعظيم والتفخيم، كما فيه كذلك لفت الانتباه وشده لمضمون الكتاب، ليحصل المزيد من التأمل والتفكر في آيات القرآن الكريم، فإنه يتبين لكم أيها المخاطَبُون من عمق معانيه ودلالاته، ومقاصده وتشريعه، وقوة بيانه أنه مُنَزَّلٌ من عند الله تعالى، مما يستلزم التصديق به، والتصديق بمحمد صلى الله عليه وسلم رسولاً من رب العالمين، أُنْزِل عليه هذا القرآن العظيم.

ثم أخبر سبحانه وتعالى بمحصلة هذا القرآن العظيم، بأن من أخذ به فقد تحصل على الهداية والرحمة ﴿ هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ ﴾ فهو هداية لقلوب وعقول المحسنين، إذ يهديهم إلى الخير والحق الذي يوصلهم لسعادة الدنيا والآخرة، فكلمة ﴿ هُدًى ﴾ شاملة لكل ما يهدي الإنسان ويُوصله في دار معاشه ومعاده إلى الخير من الفوز والفلاح. وكذلك تضمن القرآن الكريم الرحمة ﴿ وَرَحْمَةً ﴾ أي: بأنه رحمة لمن أخذ به، فيتحقق لهم به من الله تعالى ثمرة تمسكهم بالهدى، فيحصلون على الإنعام والإفضال والخير العميم والإحسان والسعادة من الله تعالى. فمن تمسك به فقد فاز بخير الدنيا والآخرة. وقد جاءت كلمتي الهدى والرحمة ﴿ هُدًى وَرَحْمَةً ﴾ نكرة لتفيد تحصيل عموم الهدى وعموم الرحمة، فجمعت جميع مجامع الدلالات الموصلة للخير بأجمعه. ومن جميل البيان ودقته أن أفرد الله تعالى التقوى، كما أفرد الرحمة، ليظهر كل واحدة منهما بتمام وكمال الظهور والاهتمام للمخاطب.

وقد ربط الله تعالى تحقق هذا الانتفاع بمن كان من المحسنين حيث قال عَزَّ وجل ﴿ هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ ﴾ وهم العاملون بالحسنات، مع الله تعالى في العبادات، ومع عموم الخلق في المعاملات. فهذه الهداية والرحمة مقتصرة على من كان من المحسنين، لأن الله تعالى ربط تحقق الهدى والرحمة لمن اتصف بالإحسان. وخص السياق صنف المحسنين بالانتفاع بالهدى والرحمة ﴿ هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ ﴾ لأن المحسن يحب الخير، ويحب ما يُوصله ويهديه إلى لخير، وإلى الرحمة، فيفرح بكتاب الله تعالى ويأخذ به في جميع

---

(١) الشوكاني، فتح القدير (٢/٤٢١)

(٢) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١٣/١٠٤، ١٦٤)

عبادته لله تعالى، فيوصله للهداية، وتتحقق له به رحمة الله تعالى. والمحسنون هم من اتصفوا بالإحسان، التي ذكرها الله تعالى بعد هذه الآية الكريمة. وأصبح الإحسان صفة لهم. ودلالة الإحسان تفيد جميل التعامل والتدبير في كل شأن وأمر، سواء ما كان مع الله تعالى أو مع الخلق. ويشمل الإحسان الأداء فيما فرض الله تعالى، والقيام بكمال الحقوق، فيعبد الله تعالى كأنه يراه، كما جاء في الحديث عن تعريف الإحسان (أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه، فإنه يراك)[1] ويستوعب الإحسان التفضل بكمال الاستيفاء في العبادة، وفي حسن التعامل مع الغير، وكمال الأداء الخلقي في جوانب الحياة المختلفة، كالمهنة والمتاجرة، والرفق بالضعيف، والعون للمحتاج، فهي صفة جامعة للخير. فالمحسن يجتهد ويسعى في ذلك بقدر وسعه.

ثم بعد أن ذكر سبحانه وتعالى المحسنين الذين يتحقق فيهم الهدى والرحمة بكتابه العزيز القرآن العظيم، يخبر عَزَّ وجل بالمقصود بالمحسنين فقال تبارك وتعالى ﴿ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ ﴾ فهم موصوفون بثلاث صفات. الصفة الأولى: ﴿ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ الذين يؤدون الصلاة المفروضة كما أمرهم ربهم بها، فمن حافظ عليها في أوقاتها، وبشروطها وهيئتها، فقد استوفى القيام بها. ومن استوفى أداء الصلاة فهود دليل على إيمانه، وصدقه، وكريم أخلاقه. وأنه حقق الجانب الأعظم من الإحسان فيما بينه وبين ربه، فعبده كأنه يراه، رغبة في طاعة ربه جَلَّ في علاه. كما أن من أوجه الإحسان على الغير بأداء فريضة الصلاة أنها تنهى عن الفحشاء والمنكر، فيمتنع المتعبد القائم بها عن أن يسيء إلى غيره بالفحشاء أو المنكر، فيكون بذلك قد أحسن إلى غيره بكف الأذى.

والصفة الثانية هي: ﴿ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ ﴾ فيؤدون الزكاة من الصدقات، وما فرضه الله تعالى من الزكاة المفروضة عليهم في أموالهم وأبدانهم، مما يفيد أن من مظاهر المحسنين في علاقاتهم بغيرهم أنهم يحسنون إلى غيرهم بشمولية معاني الزكاة. فهي تمثل بذل الندى بالوسع. والصفة الثالثة، هي: ﴿ وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ ﴾ وهم مصدقون، وموقنون باليوم الآخر. وبالتالي فقد تحقق وبلغ من هؤلاء المحسنين الإيمان بالآخرة، والبعث والحساب مبلغ اليقين الذي لا يساوره أدنى شك، والذي يجني فيه ثمرة ما قام به في الدنيا من الإحسان.

واليقين في قوله تعالى ﴿ وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ ﴾ هو الاعتقاد المبني على العلم الراسخ الذي انتفى منه الشك. ويُصَدِّقُه الامتثال بما أيقن. وهذا الإيمان وقوة اليقين يدعوهم إلى تحقيق التقوى في القلب، فيسعون للآخرة بالعمل الجاد الصحيح، فيكون سعيهم سعي المراقب لنفسه، والمتابع لعمله، فيحث نفسه على كمال الطاعة، واجتناب المعصية. فمن حقق هذه الثلاث الصفات كان محسناً في نفسه، وفي علاقته بربه، ومع

---

(١) البخاري، الجامع الصحيح (٣٣/١) برقم (٥٠)

غيره من الخلق، ومن بديع البيان ودقته تكرار ضمير ﴿ هُمْ ﴾ مرتين لإفادة الاهتمام والعناية بتحقق اليقين منهم.

ثم يخبر الله تعالى بأن ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴾ فالذين اتصفوا بتلك الصفات، سماهم الله تعالى بالمحسنين، فإنهم ﴿ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡ ﴾ على توفيق وعناية وإعانة من ربهم، لِمَا في كتابه القرآن العظيم الذي يسيرون عليه من الحق، والتحقيق والتمكين للهداية، بل أضاف سبحانه وتعالى هدايتهم إليه عَزَّ وجل ﴿ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡ ﴾ وأضافهم إلى ربوبيته ﴿ مِّن رَّبِّهِمۡ ﴾ لتدل على عظيم العناية والتكريم، والمعية الخاصة، والتسديد والتوفيق لمن اتصف بصفة المحسنين، من إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، والإيمان باليوم الآخر، ففي هذا عناية خاصة منه جَلَّ في علاه. وبالتالي فإن المحسن هو المفلح، الذي فاز بالفلاح ﴿ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴾ أي: الفائزون بمرادهم من الأجر والثواب في الدنيا والآخرة.

وبالإضافة على ما سبق من التكريم فقد حصر سبحانه وتعالى الفلاح فيهم، حيث قال عَزَّ وجل ﴿ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴾ وليس الفلاح فيمن أمسك ولم يتخلق ويأتمر بما أمر الله تعالى به. مما يفيد تعليمياً ودعوياً وتربوياً: أهمية التشجيع والترغيب والتحضيض لتعليم الخير والعمل به، وغرسه في الغير، صغاراً وكباراً. وَقد رَغَّبَت الآياتُ فيما هو مطلوب من العبد بالمثوبة الجزيلة، وهي الفلاح ﴿ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴾ فأولئك المشار إليهم سابقاً هم المفلحون وليس غيرهم. وهو الفوز بما يُحب ويرغب المحسن، ويبحث عنه المُخَاطَب، وكذا النجاة مما يخاف ويرهب. كما أن في الإشارة إليهم باسم الإشارة ﴿ وَأُوْلَٰٓئِكَ ﴾ ما يفيد التفخيم لهم. بل ورد اسم الإشارة مرتين: الأولى: قوله تعالى ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡ ﴾ فأولئك المحسنون هم الذين على هدى من ربهم. والثانية: قوله تعالى: ﴿ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴾ فأولئك المحسنون هم الفائزون، وليس من كان على ضد مسلكهم ومنهجهم. ومما يفيد: أن من أراد أن يكون على هدى من ربه، وأراد أن يكون من المفلحين، فعليه أن يكون من المحسنين، الذين يقيمون الصلاة، ويؤتون الزكاة، ويؤمنون باليوم الآخر.

ثم ينتقل البيان إلى نوع مضاد ومعاكس من الناس، وهم الذين أعرضوا عن كتاب الله تعالى، وعن الاتصاف بصفة المحسنين، فأصبح اهتمامهم متمركز على ما يُلهيهم ويُلهي غيرهم عن طاعة الله تعالى، فهؤلاء مخصوصون بعذاب أليم ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡتَرِي لَهۡوَ ٱلۡحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ ﴾ فصنف من الناس وصل بهم الأمر إلى درجة المبالغة في

إشغال غيرهم عن الحق، إلى درجة شراء، ودفع الثمن فيما يُلهي الناس حتى يضلونهم عن سبيل ربهم تبارك وتعالى بجهلهم وفهمهم السقيم، الذي ينفي عنه مزية العلم ومكانته، بما يفيد أنه لو وقر في قلبه العلم الصحيح، واستيقن حقيقته لَمَا كان منه ذلك، من اتخاذ آيات الله تعالى وحججه وبراهينه استهزاء من شدة وقوة تماديه في الباطل، فأولئك المتصفون بتلك الصفات لهم عذاب مهين من الله تعالى، فَيُهانُون بذلك العذاب أشد إهانة.

وقد بدأ البيان المهيب بالتحديد والتعيين لصنف من الناس ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ ﴾ أي: ومن أصناف الناس، صنفٌ مخالف لأهل الحق، بما يفيد التعجب من حالهم الذي انعزلوا به عن أهل الخير الذين اتصفوا بمن وصفهم وسماهم الله سبحانه وتعالى بالمحسنين. وفيه شد الانتباه لحال هذا الصنف من الناس، فإنهم نوع وفصيل من جنس الإنسان لكنهم نهجوا هذا المنهج. ثم بين تبارك وتعالى منهج ما يقومون ويهتمون ويعتنون به ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡتَرِي لَهۡوَ ٱلۡحَدِيثِ ﴾ فالمهمة التي يعتنون بها، ويهتمون بها أشد الاهتمام، هو شراء لهو الحديث. ودلالة الشراء تفيد أنه قد بلغ بهم الاهتمام بلهو الحديث إلى درجة دفع المال من أجل اقتنائه وتملكه والعناية به، فيدفع فيه الثمن، ويسترخص فيه ما تعب من أجل تحصيله من المال، فيدفع فيه الثمن، أو أن يكون اهتمامه يماثل من يشتري، ويدفع فيه المال، لإفادة شدة مبالغتهم في العناية بلهو الحديث، والاشتغال به.

ولهو الحديث جملة ودلالة شاملة لكل ما يُلهي الإنسان عن الحق، بتضييع وقته، وإفساد حاله، وإشغاله عن منافعه في الدنيا والآخرة ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡتَرِي لَهۡوَ ٱلۡحَدِيثِ ﴾ وخص بعض أهل التفسير لهو الحديث بمخصوص من اللهو. فقد جمع ابن جرير الطبري رحمه الله تعالى أقوالاً في ذلك. قال: ابن مسعود رضي الله عنه: الغناء، والذي لا إله إلا هو. يرددها ثلاث مرات. وعن ابن عباس رضي الله عنهما: الغناء وأشباهه. وعنه كذلك وعن جابر رضي الله عنهم: الغناء والاستماع له. وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: باطل الحديث، هو الغناء ونحوه. وعن مجاهد رحمه الله تعالى: هو الغناء، والاستماع له، وكل لهو. وقال الضحاك رحمه الله تعالى: يعني الشرك. وقال ابن جرير الطبري رحمه الله تعالى بعد أن ذكر تلك الأقوال: والصواب من القول في ذلك، أن يقال: عني به كل ما كان من الحديث ملهياً عن سبيل الله تعالى، مما نهى الله تعالى عن استماعه، أو رسوله صلى الله عليه وسلم، لأن الله تعالى ذكره عاماً ﴿لَهۡوَ ٱلۡحَدِيثِ ﴾ ولم يخصص بعضاً دون بعض، فذلك على عمومه، حتى يأتي ما يدل على خصوصه، والغناء والشرك من ذلك[١] وقال الزمخشري رحمه الله تعالى: اللهو: كل باطل ألهى عن الخير، وعَمَّا يعني. ولهو الحديث: نحو السمر بالأساطير، والأحاديث التي لا أصل لها، والتحدث بالخرافات، والمضاحيك، وفضول الكلام، ولا ينبغي من كان وكان، ونحو الغناء،

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (١٨/٥٣٤-٥٣٩)

وتعلم الموسيقار. وما أشبه ذلك[١] فاستوعب لهو الحديث كل ما يلهي ويصد عن سبيل الله تعالى. وقد تناول القرطبي رحمه الله تعالى تفصيل ما يتعلق بالغناء، وأحكامه، وما يجوز منه في الأعراس والأعياد، وما لا يجوز مما كان فيه إثارة للغرائز، والانحراف بالنفوس[٢] فمن أراد التوسع ينظره بتفاصيله النافعة.

ثم بين تبارك وتعالى الهدف من شراء لهو الحديث ونشره عند هذا الصنف من الناس ﴿لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ فالهدف هو إفساد الناس بإضلالهم، وإبعادهم عن سبيل الله تعالى، الذي هو الحق والهدى، وسبيل الفوز والنجاة، فيدخل في ذلك جميع من يحب نشر ما يصد ويُشغل الناس عن الحق؛ ويثير بينهم الشبهات والشهوات، ويحببها إليهم. وقد جمعت دلالة سبيل الله تعالى ﴿لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ جميع أوجه الخير من الطاعات، كالصلاة، وقراءة القرآن، والذكر، وغيرها من الطاعات. وأوقع سبحانه وتعالى الإضلال على سبيله ممن يشتر ي لهو الحديث. ليظهر ويبين ترابط الفعل مع المقصد.

ثم أخبر جَلَّ جلاله بأن هذا العمل من الصد عن سبيله، قائم به أهل صنوف الجهل بمصالح أنفسهم، فهم الذين لم يؤثر فيهم العلم ﴿بِغَيۡرِ عِلۡمٍ﴾ أي: يشتري لهو الحديث بغير بصيرة، قال ابن عاشور رحمه الله تعالى: أي: عن غير بصيرة في صالح نفسه، حيث يستبدل الباطل بالحق[٣] وقال الزمخشري رحمه الله تعالى: لما جعله مشترياً لهو الحديث بالقرآن، قال: يشتري بغير علم بالتجارة، وبغير بصيرة بها، حيث يستبدل الضلال بالهدى، والباطل بالحق[٤] وقال الشوكاني رحمه الله تعالى: أي: حال كونه غير عالم بحال ما يشتريه، أو بحال ما ينفع من التجارة وما يضر، فلهذا استبدل بالخير ما هو شر محض[٥] فدل ﴿بِغَيۡرِ عِلۡمٍ﴾ أن شراءه واقع بغير علم لِمَا ينفعه ولِمَا يضره، وليس جهلاً بالدين، وكذلك تشمل الدلالة ما ذكره ابن جرير رحمه الله تعالى: فَعَلَ ما فعل من اشترائه لهو الحديث جهلاً منه بما له في العاقبة عند الله تعالى من وزر ذلك إثمه[٦] وهو تجهيل لتصرفه، من باب الذم له ولصنيعه، بما يفيد أنه لو كان من أرباب العلم لما كان منه ذلك التصرف، فإنه من

(١) الزمخشري، الكشاف (٤٨٧/٣)
(٢) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٣٦/٣-٣٩)
(٣) ابن عاشور، التحرير والتنوير (٨٠٧/٨)
(٤) الزمخشري، الكشاف (٤٨٧/٣)
(٥) الشوكاني، فتح القدير (٢٣٥/٤)
(٦) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٥٤٠/١٨)

أهل الجهل وأربابه. فتكون دلالة ﴿ بِغَيۡرِ عِلۡمٍ ﴾ أي العلم بما هو أولى وهو الحق، فإنه استعجل بالفاني على الباقي، فحارب الحق بالباطل.

مما يفيد عظيم منزلة العلم ومكانته وأن العلم هو التطبيق، وأن من أخل بالشيء فلم يطبقه فليس هو من أرباب العلم. وبالتالي فقد استوعب السياق الكريم تلك الدلالات، ليستوعب أنواع ودرجات الأسباب التي تجعل الإنسان يستخدم اللهو، ويدفع فيه المال، ليتحقق به الصد عن سبيل الله تعالى.

والهدف الثاني: من اتخاذ لهو الحديث وشرائه ونشره بين الناس، واشغالهم به عن الطاعة، هو ما بينه قوله تعالى ﴿ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا ﴾ ويتخذ آيات الله تعالى سخرية واستهزاء. فلا يقيم لها شأناً ولا وزناً في قلبه، ومن الفوائد أن هذا دليل على تحريم السخرية بشيء من الدين، ولو كان على سبيل الفكاهة، وليس بقصد الاستهزاء بعينه.

ثم يخبر الله تعالى بعاقبة أولئك الناس الذين يشترون لهو الحديث للإضلال عن سبيل الله تعالى، واتخاذها هزواً ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ ﴾ فلهؤلاء عذاب مهين في نار جهنم، إذ يُذلُّهم ويهينهم به من شدته، جزاء لهم على استهانتهم بدين الله تعالى، فكان الجزاء من جنس العمل. ونعوذ بالله تعالى ونستجير به من عذابه في الدنيا والآخرة.

ثم يخبر الله تعالى عن شدة نفور هذا المستهزئ من آياته عَزَّ وجل ﴿ وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسۡتَكۡبِرٗا كَأَن لَّمۡ يَسۡمَعۡهَا كَأَنَّ فِيٓ أُذُنَيۡهِ وَقۡرٗاۖ فَبَشِّرۡهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ وإذا تُقرأ على هذا المستهزئ آيات الله تعالى ﴿ وَلَّىٰ مُسۡتَكۡبِرٗا ﴾ أعرض عنها استكباراً عليها، وأنفة من أن يسمعها. وورد صفة نفوره بما يدل على المبالغة في الإعراض، فكلمة ﴿ وَلَّىٰ ﴾ توضح هيئة الإعراض، بأنه كان بأسلوب الانحراف عما كان ينظر إليه مما هو أمامه إلى الدوران نحو الاتجاه المعاكس والمضاد، وذلك بإعطاء ظهره مع الانصراف عمن يتلوا آيات الله تعالى، وإذا جُمعت هذه الدلالة مع دلالة ﴿ وَإِذَا ﴾ أفادت المفاجأة والسرعة في التولي، بأنه حين تتلى عليه، أي بمجرد أنها تتلى عليه، فإذا هو مولي بسرعة عما كان يُتلى عليه من آيات الله تعالى. وزادت دلالة كلمة ﴿ مُسۡتَكۡبِرٗا ﴾ صورة هيئة انصرافه، بأنه كان بحالة وهيئة المتكبر والمتعالي عن أن يسمع آيات الله تعالى وهي تتلى عليه. فهو استكبار إعراض، وليس من باب الانشغال، بل ورد الاستكبار بصيغة المبالغة التي تفيد شدته.

ومن مزيد تحرير صفة وهيئة توليه أنه ﴿كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا﴾ فكان انصرافه وهيئة انصرافه كأنه لم يسمع تلك الآيات وهي تتلى عليه، فهيأته عند التولي كهيئة من لم يسمع شيئاً فيه موعظة وهداية، وفي ذلك إثبات أنه سمع ولكنه جعل من نفسه كمن لم يسمع شيئاً. فزاد ذلك من بيان وتوضيح قوة كبريائه، بل زاد البيان الكريم من توضيح صورة هيئته وهو مولي عمن يتلوا عليه آيات الله تعالى، بأن حاله كحال من ثقل سمعه ﴿كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا﴾ فحاله وهيئته في انصرافه كحال من لم يسمع شيئاً، فهي مشابهة لمن في أذنيه ثقل. وهو ليس في أذنيه ثقل. وفي ذلك الوصف الدقيق لحالة هذا المعرض ما يبين أنه بالغ في الإعراض. فقد بلغ به الإعراض عن آيات الله تعالى مبلغاً عظيماً من النفور الذي بالغ فيه من شدة إعراضه وتوليه عنه.

ثم يبين تبارك وتعالى جزاء هذا الذي بالغ في نفوره وعتوه ﴿فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ أخبره بأن له من الله تعالى العذاب الشديد في ألمه وقوته. وورد الإخبار له بصيغة ودلالة البشارة ﴿فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ وذك من باب التهكم والسخرية به، كما استسخر بآيات الله تعالى، وصد عنها بقوة من الاستكبار والنفور.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٩﴾ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿١٠﴾ هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١١﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ ۚ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿١٢﴾﴾

ثم يعاود البيان الكريم إلى تأكيد كريم الجزاء للذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ﴾ فإن الذين حققوا الإيمان وعملوا بما أمر الله تعالى به، فلهم مقابل ذلك ﴿جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ﴾ جنات يتنعمون فيها، وهي بشارة لهم جزاء وثواباً بما قدموه من الإيمان والطاعة والامتثال لربهم تبارك وتعالى. مما يبين ويرشد الإنسان إلى أن هناك نعيم لا حدود له في الآخرة، فليغتنم الإنسان فرصة الدنيا لتحصيل خير الآخرة الدائم.

وهناك شرطان لتحصيل ذلك الفوز بجنات النعيم: الشرط الأول: الإيمان ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ أي: صَدَّقُوا بقلوبهم، فآمنوا بجميع موجبات الإيمان وحقائقه، من غير استثناء. فآمنوا بالله تعالى، وبرسوله صلى

الله عليه وسلم، وبالقرآن، وبيوم القيامة، والبعث، والحساب، والجزاء، والجنة والنار، وبجميع كتبه ورسله، وكل ما هو متعلق بالإيمان. وأما الشرط الثاني: فهو ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ التي هي الطاعة لله تعالى. وهي: الأعمال التي أمر الله تعالى بها، لأن جميع ما أمر الله تعالى به هو من الصالحات، لتستوفي صفة الصلاح جميع شرعه، وما فيه من الأوامر والنواهي. وفي هذا تقرير بأن منهج الله تعالى قد انتفى منه وعنه الباطل من كل وجه، وثبت صلاح ما فيه للفرد والمجتمع، في الدنيا وفي الآخرة، فإن قوله تعالى ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ قد جمعت كل الصلاح. وهي غاية في كمال دلالتها، وبلاغة مضمونها، وجزالة ألفاظها. فإن أهلها هم ﴿لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ﴾ وهي السعادة الكاملة التي لا تزول ولا تنقص ولا تنتهي. وهي السعادة الأبدية.

وقد أفاد قوله تعالى ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ العلاقة الترابطية والمتلازمة بين الإيمان وبين العمل بالطاعة لله تعالى وفق ما شرع. فالذين آمنوا بتصديقهم بالله تعالى وبرسوله وبما قررته شريعة الله تعالى، وعملوا الصالحات التي هي القيام بما أوجب الله تعالى من العبادات الشاملة لجميع ما أمر الله تعالى به من الفرائض وغيرها من السنن والمستحبات. فإنه بذلك يتعاضد الإيمان مع عمل الصالحات، فيشتركان في الطاعة ولامتثال بهما. وسمَّى اللهُ سبحانه وتعالى أعمال دينه بالصالحات، لأن جميع الأعمال التي أمر الله تعالى بها قد اتصفت بتحقيق الصلاح والإصلاح في النفس، وكذلك مع الله تعالى، ومع المخلوقين. وتستوفي جميع أوامره عَزَّ وجل، وفي هذا تقرير بأن منهج الله تعالى قد انتفى منه وعنه الباطل، وثبت صلاح ما فيه للفرد والمجتمع في الدنيا والآخرة، فهي جملة غاية في كمال دلالتها، وبلاغة مضمونها، وجزالة ألفاظها، فثلاث كلمات ﴿ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ حوت منهج الله تعالى بكامله. وهذا البيان يستحث المؤمنين على لزوم الطاعة، والمسارعة إلى كل ما يحبه الله تعالى ويرضاه. وهو فضل عظيم من الله سبحانه وتعالى لأهل طاعته. كما يستحث الكفار على المسابقة إلى الدخول في الإسلام، والامتثال لدين الله تعالى، الذي أنزله على رسوله محمد صلى الله عليه وسلم. فإن أهلها ﴿لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ﴾ وهي السعادة الكاملة التي لا تزول ولا تنقص ولا تنتهي. وهي السعادة الأبدية.

فإن الذين جمعوا بين الإيمان، وبين العمل بما أوجبه الله تعالى ﴿لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ﴾ أي: فهم في جنات كثيرة، قد اتصفت بالنعيم الذي لا يزول ولا يحول، وقد انتفى منها كل ما هو ضد النعيم، من التعب والنصب والمرض والشقاء. فَبَلَّغَهم الله سبحانه وتعالى المأمولَ والمطلوب في الآخرة، وهي جناته سبحانه وتعالى الموصوفة بالنعيم ﴿لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ﴾ بما يفيد كمال النعمة وكثرتها، التي لا حدود لها، والتي فيها طيب

العيش، ولينه وخصبه، الذي لا يزول. وقد دل وأفاد الجمع للجنات ﴿لَهُمْ جَنَّتُ ٱلنَّعِيمِ﴾ على كثرة بساتينها وتعددها وتنوعها. وسماها عَزَّ وجل بالنعيم، الذي ينتفي معه جميع ما يضاد النعيم، كالنصب والتعب، والهم والحزن. فليس فيها إلا النعيم والسعادة والرفاهية فقط لا غير.

وأن هذا الجزاء متصف بالخلود ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٗاۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ فهم خالدون خلوداً أبدياً، لا يزول عنهم أبداً، ثم يؤكد الله تعالى بأن وعده حقيقة ﴿وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٗا﴾ فإن ما يعد الله تعالى به، كائن حقاً، لا ريب ولا شك فيه أبداً ﴿وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ أي أن ربكم له كمال العزة، وكمال الحكمة، فهو ﴿ٱلۡعَزِيزُ﴾: الغالب والقاهر لجميع الأشياء، فليس مثله شيء في العزة والانتقام والقهر والغلبة وكمال السلطان. والثانية: ﴿ٱلۡحَكِيمُ﴾ أي: الموصوف بكمال الحكمة في أفعاله وأقواله، وتدبيره لشأن خلقه، وكمال الحكم والعدل، والذي يضع الأمور مواضعها، وينزلها منازلها الحقيقية. ليعطي بذلك عبده وغيره أدب البدء، وأخلاق الخطاب، ومنهج التعريف.

ثم يذكر سبحانه وتعالى شيئاً من جوانب ومظاهر قدرته المبينة والمؤكدة لعزته وحكمته ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيۡرِ عَمَدٖ تَرَوۡنَهَاۖ وَأَلۡقَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمۡ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٖۚ وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوۡجٖ كَرِيمٍ﴾ خلق ربكم ما ترون من عظيم المخلوقات الدالة على عظيم قدرته، وعزته وسلطانه وتدبيره ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيۡرِ عَمَدٖ تَرَوۡنَهَا﴾ فإن الله تعالى هو الذي خلق فأوجد السماء كما ترونها مرفوعة من غير أعمدة تقوم عليها، فلو كان لها عمد لرأيتموها، أفلا يدل علوها، وسعتها، وقيامها مع ثبوتها من غير أعمدة على قدرة وعظمة خالقها سبحانه وتعالى، فإنه ليس لمخلوق عاقل أن يقول هي أوجدت نفسها، وبالتالي فإن هناك خالق تبارك وتعالى قد خلقها، فأوجدها بهذه الكيفية، وهذه الحقيقة.

كما أنه خلق الأرض بسعتها وقوتها، وجعلها ثابتة بما ألقى فيها من الجبال ﴿وَأَلۡقَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمۡ﴾ فألقى في الأرض، أي: جعل في الأرض جبالاً لترسيها، ومنع تحركها واهتزازها بمن عليها. وسمَّى الله تعالى الجبال بعلتها وسبب وجودها وقوتها، بأنها ﴿رَوَٰسِيَ﴾ ولم يذكرها تبارك وتعالى باسم الجبال، ليلفت انتباه الإنسان إلى علة وجودها، ووظيفتها وقوتها، ليتبين للإنسان أن من وظائف الجبال أنها قوة لتثبيت الأرض وتُرَسِّيها عن الحركة في هذا الفضاء العميق، الذي لا يثبت فيه الشيء إلا بإيجاد أسباب الثبات منه تبارك

وتعالى. فقال عَزَّ وجل عن علة وسبب وجود هذه الرواسي ﴿أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾ لكي لا تضطرب وترتجف بكم، فأصبحت الأرض بذلك مستقرة للإنسان بهذه الجبال الرواسي. وهذ يثير السؤال عَمَّن هذا الذي جعل هذا التناسق، وأوجد هذا السبب لاستقرار الأرض، وجعلها ممدودة مبسوطة؟ أليس في هذا آيات ومعجزات على أن لهذا الكون رب قد خلقه، وسخره، ودَبَّرَهُ أحسن تدبير؟ فكل شيء يدل على عظمة الخالق تبارك وتعالى، وأن له الملك وحده لا شريك له. كما يفيد هذا أن الله تعالى جعل لكل شيء سبباً، وهو قادر بأن لا تكون للأسباب قدرة، ولا حاجة لها، ولكن ليتعلم الإنسان قوة وعظمة ودقة تدبير الله تعالى.

ومن دقائق البيان أن كل كلمة في القرآن لها دلالة دقيقة في استخدامها دون غيرها، فلا يمكن أن يحل غيرها مكانها من الكلمات فتعطي نفس المعنى والمقصد والدلالة، وذلك لما تحمله كل كلمة في سياقها من مقاصد ومعاني، فأفادت كلمة ﴿وَأَلْقَىٰ﴾ شد الانتباه إلى وجود الجبال وكأنها طُرحت وألقيت على الأرض القاء، وذلك لبروزها وارتفاع قوامها فوق سطح الأرض، وكأنها أُنْزِلَت فرُكِّبَت فوقها، وهذا من جميل البيان ودقة توظيف اللفظة والكلمة، بما يحقق المقصد والمراد. وقد سمى الله تعالى الجبال في هذا السياق بما يناسب علة وجودها ﴿رَوَٰسِيَ﴾ وهذا من بديع السياق وإعجازه، لأن الرواسي من الإرساء، والتثبيت، والتمكين، ورسوخها في أماكنها، مما يدل على ثبات الجبال، وأن للأرض حركة، فثبت الله تعالى حركتها بالجبال. ثم ذكر تبارك وتعالى علة تثبيت الأرض بالجبال الرواسي، من أنها وبأنها من أجلك أيها الإنسان، حتى لا ترتجف بك الأرض ﴿أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾ أي: حتى لا تضطرب بكم أيها الناس، لأن الميد هو التحرك. ولم يقتصر البيان من الله تبارك وتعالى على مفعول وأثر تثبيت الجبال للأرض فقط، بل أكد أنها من أجلكم أيها الناس، وذلك بإضافة ﴿بِكُمْ﴾ فأنتم المقصودون من هذا التثبيت أيها الناس، فإنها من رحمة ربكم بكم. فلقد أكرم الله جَلَّ في علاه هذا الإنسان، وأخبر وبَيَّنَ وأوضح إكرامه له بأنعام وغايات وعللٍ جليلة عظيمة، وعناية بشأنه عناية فائقة جليلة كريمة، فما موقفك أيها الإنسان تجاه من اعتنى بك هذه العناية الجليلة، فإن الواجب أن يكون حال الإنسان مع الله تعالى مثالاً للطاعة والاستقامة، والائتمار بما أمر، والانتهاء عما نهى، وأن يلهج اللسان والقلب بالحمد والشكر له سبحانه وتعالى.

ومن مزيد عناية رب العباد بعباده جَلَّ شأنه أن زَوَّد الأرض بما يحتاجه الإنسان، فقال تعالى ﴿وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ﴾ فنشر في أرجاء الأرض من جميع أنواع الدواب التي يحتاجها الإنسان، فواءم سبحانه وتعالى بين حاجة الإنسان وبين إيجاد تلك الحاجات، وتسهيلها. ليدل على عظمة التدبير، وعظمة الخلق، وإكرام

الله تعالى لهذا الإنسان، وتسخير ما يحتاجه إليه. بل وأوضح إكرامه بصيغة الكثرة بالنشر والانتشار للدواب ﴿وَبَثَّ﴾ فالبث يعني النشر والتوزيع، بحيث يجد الإنسان الدواب أينما كان، وأينما اتجه وسار في الأرض.

ومن مزيد الإكرام كذلك قوله تعالى ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ فأنزل بالسحاب المسخر الذي تجري به الرياح في السماء ماء، ليكون سبباً في إنبات ما تحتاجونه من الثمار والزروع ﴿فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾ فأنبتنا بهذا الماء من المطر من كل صنف من أصناف النبات ﴿زَوْجٍ﴾ أي: نوع وصنف من النبات، وجعله متصف بالحسن والنفاسة في منظره وغذائه لكم، وطعمه وشكله. فهو ﴿زَوْجٍ﴾ أي أصناف. وزيادة على ذلك التنوع فإنه ﴿كَرِيمٍ﴾ غاية في لذة الطعم والشكل والهيئة. فهو امتنان وإكرام من الله تعالى عظيم، مما يستوجب منك أيها الإنسان الامتثال والطاعة لله تعالى، خالق السماوات والأرض، وخالق ما فيهما من مخلوقات.

ثم يثبت الله تعالى بهذا الخلق العظيم عجز كل مخلوق أن يخلق شيئاً مما خلق سبحانه وتعالى ﴿هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ فهذا الخلق المذكور لكم أيها الناس هو صُنع وخلق ربكم، فإذا علمتم ذلك ﴿فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ﴾ فأروني وأعلموني ماذا خلق الذين اتخذتموهم آلهة تعبدونهم من دون ربكم. ففي ذلك إلجام لكل مشرك بالله تعالى. لأن الجواب: لا يوجد أحد غير الله تعالى يخلق شيئاً من الخلق، فإذاً لماذا تُشركون المخلوق مع الخالق؟ فهو استدلال مُلجم، ويعلم كيف يكون الحوار التعليمي، والمنهج العلمي في الاستدلال، وإثبات الحقائق. كما يبين هذا مصداقية هذا الدين، وأنه من الله العزيز الحكيم، وأنه يُعَلِّم الناس بالإرشاد والتوجيه، والإقناع الذي يخاطب العقل بما يقنعه بالصواب. كما يدل على أن هذا القرآن بهذه القوة من البيان أنه كتاب الله العزيز الحكيم.

ثم ينتقل السياق الكريم من البيان إلى النتيجة والمحصلة المتضمنة للحكم الرباني ﴿بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ بل إن الظالمين لأنفسهم وللحق الذي جاءهم به رسول الله الله صلى الله عليه وسلم، فإنهم ﴿فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ أي: في كفر واضح، بأن أساسه العناد للحق. أي: فإن الظالمين واقعون في الكفر الواضح بأنه عن تعمد، وإنكار للحجج والبراهين التي بينها ربهم لهم. فكان الحكم عليهم عدلاً، بعد أن أقام سبحانه وتعالى الحجة بتلك الآيات التي تنوعت في مضمونها.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ ۚ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿١٢﴾ وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ۚ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾﴾

ينتقل السياق الكريم إلى شأن الرجل الصالح لقمان، وهو أحد عباد الله الصالحين، قال ابن كثير رحمه الله تعالى: اختلف السلف في لقمان، هل كان نبياً أو عبداً صالحاً من غير نبوة؟ وعن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: كان لقمان عبداً حبشياً نجاراً[١] ورجح ابن الجوزي: أنه كان حكيماً، ولم يكن نبياً، وهو قول: سعيد بن المسيب، ومجاهد، وقتادة[٢] وقد ضرب الله تعالى بلقمان المثل والنموذج في الصلاح وفي نصحه واهتمامه بتنشئة ولده على طاعة الله تعالى. وعلى عظيم امتنان الله تعالى عليه بالحكمة. كما أن في تخصيص لقمان بذكر توحيده وحكمته ما يدل على منزلته ومكانته التي كان عليها رحمه الله تعالى. فقال عَزَّ وجل ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ ۚ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ﴾ لقد رزقنا بفضلنا لقمان الحكمة. والحكمة هي: الفهم والعقل، والعلم النافع، والصواب في القول والعمل، وذلك بوضع الشيء موضعه اللائق به. مما يبين أن الفضل بجميع أنوعه لله تعالى، وأنه يهب لمن يشاء ما يشاء، مما يعزز أن يسأل المرء ربه تبارك بما يحتاجه، ومن ذلك العلم والحكمة، وغيرها من الأرزاق والفضل.

وقد أسند سبحانه وتعالى إيتاء الحكمة له عَزَّ وجل ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ﴾ ليفيد الامتنان والتكريم، وأسبق البيان بحرف التوكيد الذي تقدمه لام القسم ﴿وَلَقَدْ﴾ الذي يفيد تحقق ما بعده من البيان، وهو إيتاء لقمان الحكمة. ثم قال اللهُ تعالى ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ﴾ أي: أن اشكر لله تعالى ما أعطاك ومنحك مما تفضل به عليك من الحكمة، مما يفيد أهمية الحمد والشكر لله تعالى، وأنه أمر واجب أوجبه الله

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٣/٤٥٢)

(٢) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٦/١٦١)

تعالى على عباده، لأن كل نعمة تحتاج إلى شكر الله عَزَّ وجل بما امتن بها على العبد، وإذا تأمل العبد وجد نفسه محاط بأنعم الله تعالى، فاستوجب ذلك كثرة الشكر لله عَزَّ وجل الذي لا ينقطع.

ثم أخبر سبحانه وتعالى بأن ثمرة الشكر عائدة على الشاكر، لأن الله تعالى غني عن شكر عباده له، فقال عَزَّ وجل ﴿ وَمَن يَشۡكُرۡ فَإِنَّمَا يَشۡكُرُ لِنَفۡسِهِۦ ﴾ فمن يشكر الله تعالى على ما أنعم به عليه من الإنعام ﴿ فَإِنَّمَا يَشۡكُرُ لِنَفۡسِهِۦ ﴾ فثمرة شكره عائدة عليه بالحسنات، وبحفظ ما أنعم به عليه، مع زيادة الخير والبركة. فالتكثير من الشكر عائد على من شكر. ومن لم يشكر عائد تقصير عليه ﴿ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٞ ﴾ ومن كفر النعمة، بأن أنكرها، ولم يشكر الله تعالى، ولم ينسبها إلى ربه سبحانه وتعالى ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٞ ﴾ فإن الله تعالى غني عن شكر من كفر النعمة، وأنه عَزَّ وجل ﴿ حَمِيدٞ ﴾ أي: محمود على كل حال، سواء شكر وحمد العبد ربه أو لم يحمده، فهو المستحق للحمد من عباده، لتفضله بالإنعام عليهم بالنعم التي لا تحصى ولا تُعد. فالحمد لله تعالى على ما أنعم به مِن نعم لا تُعَد، وإحسان منه لا يُحد.

وتفيد بُنية لفظة ﴿ حَمِيدٞ ﴾ المبالغة، لأنها من صيغ المبالغة التي تعطي دلالة كثرة حامديه في السماوات والأرض، وأنه محمود عند خلقه تبارك وتعالى بما أعطاهم وبسط عليهم من فيض نعمه سبحانه وتعالى، وهو المحمود بكل لسان وعلى كل حال، فلا يُحْمَدُ في السراء والضراء إلا هو عَزَّ وجل، فهو المحمود في جميع أفعاله وأقواله وشرعه، وما يقدره ويمضيه، وما يمنعه سبحانه وتعالى. فهو عظيم الشأن، كثير الإحسان على عباده، بما يفيضه عليهم من الخيرات، التي لا حدود لنعمه وإنعامه عَزَّ في علاه.

ثم يخبر الله تعالى بشيء من عبودية لقمان وحكمته، وعنايته التربوية بابنه، فكما كان شاكراً لأنعم ربه عليه، فقد كان واعظاً وناصحاً لغيره ﴿ وَإِذۡ قَالَ لُقۡمَٰنُ لِٱبۡنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَيَّ لَا تُشۡرِكۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ ﴾ واذكر أيها النبي صلى الله عليه وسلم للناس توحيد لقمان، وإفراد ربه بالعبودية الخالصة، وأمره لابنه، بتوحيد الله تعالى، ونهيه عن الشرك، وعنايته بابنه، واجتهاده معه في تنشئته التنشئة الصالحة، فكما كان صالحاً في نفسه، فقد كان مجتهداً في إصلاح غيره، كما هو الحال مع ابنه، فيتعاهد ابنه بالموعظة ﴿ وَإِذۡ قَالَ لُقۡمَٰنُ لِٱبۡنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ ﴾ حين قال لابنه وهو يعظه بما يرغبه ويعلمه. مما يبين أهمية الموعظة المتمثلة بالنصيحة التي تُرغب في الخير، وتُكرّه في الشر، وتصرفه عنه. وفيه بيان القدوة لكل أب في مناصحة وتعاهد الأولاد بما يجعلهم صالحين مصلحين.

ثم أورد تبارك وتعالى صيغة وعظ لقمان لابنه، إذ بدأه بالنداء ﴿ يَٰبُنَيَّ ﴾ الذي يفيد الاهتمام، مع شد الانتباه والفكر لما يناديه من أجله. كما خاطبه بلفظ البنوة ﴿ يَٰبُنَيَّ ﴾ والتي تفيد إظهار العلاقة بين الولد ووالده، فأنت ابني الذي أشفق عليه، وأحب له الخير. مما يعلم به غيره، كيف تكون الحكمة في تعامل الوالد مع ولده. كما يبين ذلك إظهار المسؤولية التربوية من الوالد لولده، بأن الواجب أن يعتني به من جميع النواحي، وخاصة أمر دينه.

ثم بعد النداء أورد النهي المباشر عن اقتراف الشرك بالله تعالى ﴿ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ﴾ يا بني: لا تجعل مع الله شريكاً. وورد النهي عاماً لجميع أنواع الشرك، ومجالاته. فلا تشرك مع الله تعالى شريكاً في العبودية، ولا في الملك، ولا بالرياء، ولا بالسمعة، ولا بأي نوع من أنواع الشرك. أي كن موحداً ومخلصاً لله تعالى، في ألوهيته وعبوديته. وهو أعظم الأمور وأجلها، لأن من أشرك بالله تعالى فقد حبط عمله، وأصبح من الكافرين. وهنا لم ينهاه عن ترك الشرك، بل نهاه عن أن يحصل منه الشرك. مما يفيد أنه نهي وقاية وتحذير، من أن ينزلق في الشرك ﴿ لَا تُشْرِكْ ﴾ لا يحدث منك الشرك. ثم أوضح له خطر الشرك ﴿ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ فَعَظَّم له خطورة الشرك بأنه ﴿ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ فإنه ظلم ﴿ عَظِيمٌ ﴾ قد بلغ منتهاه، لأنه أبشع ما يكون من العبد مع ربه وخالقه، فيعدل مخلوقاً بالخالق عَزَّ وجل. وأنه بالشرك يكون قد بلغ منتهاه في الكفر، وذلك بإيقاع نفسه في الكفر المخرج من الملة، فيدخل النار برغبته وظلمه لنفسه، ويكون بذلك قد ارتكب ظلماً عظيماً لحق الله تعالى، وهذا التعليل يعزز ويقوي فهم خطورة الشرك ليبتعد عنه، ولا يتأثر بالمشركين، ودعوتهم للشرك.

ثم انتقل البيان الكريم من الله تعالى لشأن الوالدين والوصية بهما، والعناية بحقهما، وجعل التوجيه في هذا الشأن من الله تعالى ولم يكن من وصية لقمان التي تُستكمل بعد وصية الله تعالى بالوالدين، وذلك لإظهار منزلة ومكانة بر الوالدين، وأنها وصية مباشرة من الله تعالى للإنسان، فقال عَزَّ وجل ﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴾ فلمنزلة الوالدين في حكم الله تعالى وشريعته، أورد الله تعالى الوصية بهما أثناء عرض وصية لقمان، لبيان عظيم شأنهما، وليبدأ بهما بعد النهي عن الشرك الذي هو حق الله تعالى في توحيده، ولأن لقمان أيضاً لا يمكن أن يُشرع المنزلة للوالدين. ففي ذلك تعظيم من الله تعالى لحق الوالدين على الأولاد. فيقول تبارك وتعالى ﴿ وَوَصَّيْنَا ﴾ أي: وقضينا، وفرضنا على ﴿ ٱلْإِنسَٰنَ ﴾ على جنس الإنسان جميعاً، ليتبين بذلك مزيد

التعظيم، خاصة وقد بدأ البيان بالأمر ﴿ وَوَصَّيْنَا ﴾ وتوصية الله تعالى جليلة في مكانتها ومنزلتها، وتكريم لمن أوصى بهما، وهي طاعة لله تعالى لمن امتثل بها.

وبدأت التوصية بالأبوين معاً ابتداء ﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ ﴾ كلا الوالدين قد أوصى الله تعالى بهما. قال الزمخشري رحمه الله تعالى عن قوله تعالى ﴿ وَوَصَّيْنَا ﴾ حكمه حكم أمرنا في معناه وتصرفه[١]

ومن رفعة مقام التوصية والْمُوصَى بها أن الذي أمر بها هو الله سبحانه وتعالى ﴿ وَوَصَّيْنَا ﴾ بضمير المتكلم الذي يفيد التفخيم والتعظيم من المتكلم وهو الله عَزَّ وجل، ليعطي الوصية شأناً ومكانة بفعل الأمر وبتفخيم الذي أوصى بها سبحانه وتعالى. بل ومن تعظيمها أن وردت التوصية لجنس الإنسان ﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ ﴾ لإفادة التحضيض والتعظيم لها، بالرغم من أن أكثر الناس من الكافرين. ليدل ذلك على التعظيم لشأن الوالدين.

كما ورد اسم الْمُوصَى بها بلفظ الوالدين ﴿ بِوَٰلِدَيْهِ ﴾ فلفظ الوالدين يشير إلى الولادة، وعناء الحمل، وعناء مصاريف المعيشة، والرعاية للحمل، ثم للمولود، ثم لمراحل نشأة الطفولة، وما فيها من العطف والحفظ والرعاية. كما تشير دلالة ﴿ بِوَٰلِدَيْهِ ﴾ إلى أنهما الأصل لهذا الولد، وهو الفرع منهما. وهنا لم يذكر تبارك وتعالى ما أوصى به من الإحسان للوالدين، وإنما عدل مباشرة إلى الأعمال التي تستوجب الإحسان، لأن الإخبار بها يستوجب الإحسان والرحمة بهما من غير ذكر لذلك. وكذلك لتستوعب كل خير، بجميع مفرداته ودرجاته. وليختم الآية بالمطلوب وهو الشكر لهما، مقروناً بشكر الله تعالى ﴿ أَنِ ٱشْكُرْ لِي وَلِوَٰلِدَيْكَ ﴾ وهي غاية في الوعظ، واستثارة النفس وعواطفها لما كابدت ووجدت الأم من المشقة، والأب من الرعاية.

وقد أفرد سبحانه وتعالى الأم بزيادة التعيين، وبزيادة بيان ما كان منها من العناية ومشقة الحمل ﴿ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ ﴾ فإن حمل الولد في بطن أمه شدة بعد شدة، وإضعاف متزايد لحالها على حالها وضعفها السابق، ومشقة متلاحقة بعد مشقة، وفي ازدياد مستمر حتى الولادة، ثم الرضاع والعناية حتى تفطمه من الرضاع، ثم التربية حتى يكبر ويستقل بنفسه، بما يفيد ويبين أن حملها كان ثِقَلاً على ثِقَل، فكل وقت يكون أثقل مما كان عليه من زيادة الْحِمْل له، فهو ثِقَلٌ متزايد بحجمه المتزايد في بطن أمه، فتزداد المشقة والعناء عليها، فَيُضْعِفُهَا، ويُضعف قوتها في تتابع مستمر حتى ولادتها، لتدخل في عناء آخر بعد ولادتها. فهي جديرة بإحسان ولدها لها.

---

(١) الزمخشري، الكشاف (٤٣٨/٣)

ثم يخبر سبحانه وتعالى بمدة رضاعة أمه له ﴿ وَفِصَٰلُهُۥ فِي عَامَيۡنِ ﴾ وفطامه في عامين. قال ابن كثير رحمه الله تعالى: أي: تربيته وإرضاعه بعد وضعه في عامين، كما قال تعالى في سورة البقرة ﴿ وَٱلۡوَٰلِدَٰتُ يُرۡضِعۡنَ أَوۡلَٰدَهُنَّ حَوۡلَيۡنِ كَامِلَيۡنِۖ لِمَنۡ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ ﴾ ومن ها هنا استنبط ابن عباس وغيره من الأئمة أن أقل مدة الحمل ستة أشهر، لأنه قال تعالى في الآية الأخرى، في سورة الأحقاف ﴿ وَحَمۡلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهۡرًا ﴾[١] فمدة الحمل ومدة الإرضاع الطويلة تستوجب من الولد بذل أقصى الجهد من الإحسان لأمه.

ثم يخبر الله تعالى بما ينبغي على الولد من مستلزمات الوصية من ربه جَلَّ جلاله ﴿ أَنِ ٱشۡكُرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيۡكَ إِلَيَّ ٱلۡمَصِيرُ ﴾ فهناك شكران مطلوبان من الولد: الأول: شكر الله تعالى ﴿ أَنِ ٱشۡكُرۡ لِي ﴾ بأن تشكر الله تعالى الذي أوجدك بهذا الحمل، وسَلَّم الحمل حتى أصبحت مُكَلَّفاً، فيستوجب منك أيها العبد أن تحمد وتشكر الله تعالى بطاعته وحُسن عبادته. والشكر الثاني: مقرون بشكره سبحانه وتعالى ﴿ وَلِوَٰلِدَيۡكَ ﴾ واشكر والديك، الإثنين معاً، بالإحسان إليهما، لقاء ما كان منهما من العناية والتربية، والحفظ والرعاية التي بذلاها لك. فإن المصير إلى ربك سبحانه وتعالى ﴿ إِلَيَّ ٱلۡمَصِيرُ ﴾ فالمنقلب والرجوع الذي هو المصير سيكون إلى الله تعالى، فيجزيك على إحسانك بأعظم الجزاء، وبما يفيد: الترغيب في الطاعة التي يجد مقابلها أحسن الثواب وأجزله يوم القيامة، والتحذير من أن يحصل العقوق وعدم الإحسان إليهما. فإن لم تحسن فمصيرك إلى الله تعالى، ويعاقبك عَزَّ وجل على عدم إحسانك إليهما. فجمع البيان بين الترغيب والترهيب والتحذير. وقد وردت أحاديث كثيرة عن المصطفى صلى الله عليه وسلم تبين وتحث على بر الوالدين، وأن برهما يُدْخِلان العبد الجنة.

ومن دقائق البيان أن الوصية بدأت بالوالدين معاً ﴿ وَوَصَّيۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيۡهِ ﴾ ثم أفرد سبحانه وتعالى الأم بما انفردت به من المشقة، ثم ختم سبحانه وتعالى الوصية بالوالدين معاً ﴿ وَلِوَٰلِدَيۡكَ ﴾ وهي دقة في البيان، ودقة في توجيه الولد بأن يحسن لأبويه معاً، فالأم أكثر مشقة بالحمل والولادة، والرعاية الخاصة، والوالد بالنفقة والتربية والتوجيه والعناية. اللهم اغفر لوالدينا، وارحمهم كما ربونا صغارا.

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٣/٤٥٤)

ثم يُفرد الله تعالى نوعاً واحداً لا يطيع ولا يبر والديه فيه، وهو حال أن طلبا من الولد أن يعصي الله تبارك وتعالى بالشرك به عَزَّ وجل، فهنا لا طاعة لهما في معصية الخالق ﴿ وَإِن جَـٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ۚ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ فيُستثنى من بر الوالدين والإحسان إليهما طلب الشرك من الولد، فليس لهما حق في الطاعة والبر في هذا الشأن. وقد ورد ذلك بأسلوب النهي القاطع ﴿ فَلَا تُطِعْهُمَا ﴾ الأمر الذي يضبط علاقة البر والإحسان بالوالدين ﴿ وَإِن جَـٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ﴾ فلا تطعهما في معصيتك لله عَزَّ وجل، ولكن واصل واستمر في برك لهما فيما عدا ذلك. فبرهما حتى وإن كانا مشركين بالله تعالى. لأن طلب الشرك منهما يدل على أنهما مشركين. فإذا طلب أحدهما أو كلاهما منك الشرك، وأن تخرج عن إيمانك ﴿ فَلَا تُطِعْهُمَا ﴾ وكلمة ﴿ جَـٰهَدَاكَ ﴾ تفيد شدة الإلحاح والإصرار، والمبالغة منهما، أو من أحدهما في أن تشرك بالله تعالى، فإنه مع قوة ومنزلة تلك الوصية بالبر بهما، إلا أنه في هذا الحال ﴿ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ﴾ فلا تطعمها في الشرك، واستمر في مصاحبتهما في الدنيا بالمعروف على ما هم عليه من الشرك.

مما يدل على عظيم إثم الشرك، مع عظيم بر الوالدين، بقوة الوصية بهما من الله عَزَّ وجل. وفي استثناء الشرك من وصية الإحسان ما يدل على قوة الحث على برهما. فهو تحقيق للمسألة في أعلى درجات دقة الوجوب. وليدل على رحمة الله تعالى بالوالدين، في غير معصيته سبحانه وتعالى. وأن منع وتوقف البر يكون مقصوراً ومحصوراً فقط في حدود المعصية لله تعالى. وفيه تعليم الترجيح، ومرتكزاته، وأن حق الله تعالى فوق جميع الحقوق، ويأتي بعده حقوق الوالدين، حيث رتب الله تعالى ترتيبهما بعد توحيده وعبادته عَزَّ وجل. وأفردها عن وصية لقمان لابنه، ولكن وأوردها خلال وصية لقمان. لإظهار وجوب بر الوالدين، ولفت الانتباه لها من خلال قطع تسلسل وصية لقمان لابنه، واستكمال الوصية بعد بيان شأن بر الوالدين، ومعالجة إشكالية كونهما مشركين، وطلبا ما يتعارض مع حق الله تعالى. بل وحتى على قول من قال بأنها من وصايا لقمان إلا أن سياق بيانها ورد على أنه من الله سبحانه وتعالى. مما يفيد عظمة هذا الدين في تشريعه، وفي أخلاقه، ونظامه، وتنظيمه، وعنايته بشؤون العباد، وتوجيههم التوجيه الذي يرتقي بعقولهم وأخلاقهم، وفكرهم وعلمهم.

ومن دقائق البيان الكريم أن ورد النهي عن طاعتهما في الشرك بأسلوب حكيم، وغاية في دقة المضمون والمعالجة، فقال تعالى ﴿ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشۡرِكَ بِي مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٞ ﴾ فجملة ﴿مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٞ ﴾ تفيد أن الأصل في العلم هو توحيد الله تعالى، وأنه ليس له شريك، والمؤمن يعلم علم اليقين أنه ليس لله تعالى شريك. وبالتالي فإن الذي ليس لك به علم فلا تُمكنه من نفسك وتَدَّعِيه بالباطل، وواقع الشرك أنه ليس له دليل بجميع أنواعه، فمقتضى ما ليس لك به علم مرهون بالحجة، واعتماده على الأدلة والبراهين. وبالتالي ليس هناك علم بأن هناك شريك مع الله تعالى. بما يدل على أن الشرك مخترع، ومُفترى. فورد النفي على الحقيقة التي يعلمها المؤمن من وحدانية الله تعالى. وجملة ﴿مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٞ ﴾ تبين أن دين الله تعالى قائم على العلم، المتمثل في الأدلة والبراهين، ولذلك يُعيد التوجيه الكريم الإنسان في تصحيح عقيدته إلى الحقيقة المبنية على العلم بالحق. وليس هناك حق شراكة لله تعالى، فهو الذي خلق وأنشأ الخلق وحده لا شريك له، ومن ذلك: خلق السماوات والأرض، وخلق الإنسان، وتدبير الكون، وغير ذلك من الخلق والتدبير الذي أَقَرَّهُ المشركون في إخلاص الدعاء عند الكرب، كركوبهم البحر، وتقريرهم بأن الله تعالى هو الخالق.

فيستثنى سبحانه وتعالى من أمره بطاعة الوالدين وبرهما، طاعتهما في الشرك ﴿فَلَا تُطِعۡهُمَا ﴾ فلا طاعة لمخلوق في معصية الخالق مهما بلغت درجة وجوب الطاعة شرعاً، فعند طلب المعصية يتوقف البر في تلك المعصية فقط، مع استمراره في غير المعصية. مما يدل على عناية الله تعالى بالوالدين حتى وإن كانا مشركين، فإن المؤمن يُثاب على بره لوالديه وإن كانا كافرين، وأنه يعاقب على عدم الإحسان إليهما وإن كانا كافرين. لأن الأمر بالإحسان يقتضي الوجوب الذي يعاقب تاركه، ويُثاب فاعله.

كما يفيد ذلك على عظيم معصية الشرك التي مُنع منها طاعة الوالدين على شدة الوصاية منه سبحانه وتعالى بالإحسان إليهما. ولكن ﴿وَصَاحِبۡهُمَا فِي ٱلدُّنۡيَا مَعۡرُوفٗا ﴾ فبعد النهي عن طاعتهما في الشرك يأمر عَزَّ وجل بصحبتهما في الدنيا بالمعروف، وهي صحبة البر والإحسان والرحمة التي يُسديها الولد لوالديه ﴿وَٱتَّبِعۡ سَبِيلَ مَنۡ أَنَابَ إِلَيَّ ﴾ واتبع طريق المؤمنين ومسلكهم، أولئك الذين أنابوا لربهم بالخضوع والامتثال. فاسلك مسلكهم، وكن ممن أنابوا إلى ربهم سبحانه وتعالى بالخضوع والذل والطاعة.

ثم يحذر سبحانه وتعالى من مخالفة ما أمر وأوصى ووجه به ونهى عنه ﴿ثُمَّ إِلَيَّ مَرۡجِعُكُمۡ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴾ فانتبهوا واحذروا أيها الناس، فإن عودتكم بعد موتكم إلى ربكم عَزَّ وجل، فيخبر كل واحد بما كان منه، بما يفيد الحساب الذي يليه الجزاء. كما أنه يحمل الترغيب بأنكم مجزيون على طاعتكم

لربكم الجزاء الأوفى في الآخرة. وأن من عصى سينال جزاءه، فإن هناك معاد يوم القيامة، وحياة بعد الموت، وحساب وجزاء. وفي هذا ترغيب وترهيب بالمرجع إلى الله تعالى ﴿ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ فأخبركم بتفاصيل أعمالكم من الخير والشر. ثم تحاسبون وتُجزون كل بما كسب من البر والمعصية.

﴿ يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِي ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿١٦﴾ يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٧﴾ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًاۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾ وَٱقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ ﴿١٩﴾ ﴾

ثم يعود السياق الكريم إلى إكمال وصية لقمان لابنه، فقال الله تبارك وتعالى عن الوصية: أن لقمان قال ﴿ يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِي ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴾ فبدأ لقمان الصالح في مخاطبة ابنه بأسلوب النداء، كما بدأ في الوصية الأولى له بالنداء أيضاً ﴿ يَٰبُنَيَّ ﴾ فكررها للمزيد من شد الانتباه، ولإشعاره بأهمية ما يخاطبه ويوصيه به، بأن أعرني سمعك وانتباهك يا بني لما أقوله وأوصيك به، ليدل على أنها وصايا ثمينة، وغاية في الأهمية، مع التلطف بابنه وهو يعظه ويوصيه بذلك النداء الذي يحمل الشفقة والعناية والاهتمام، فكلمة ﴿ يَٰبُنَيَّ ﴾ تُقَرِّبُ الابن من أبيه، وتُشعر الابن بأنه في مكانة الرحمة والعناية من أبيه، فيقول له ﴿ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ ﴾ إن المظلمة أو الخطيئة مهما كانت صغيرة، ومتناهة في صغرها، حتى وإن بلغت من حقارتها في العين وفي الوزن ﴿ مِثْقَالَ ﴾ وهو أصغر ما يوزن به الشيء، فكانت في حجمها وهيئتها صغيرة كمثل وشأن ﴿ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ ﴾ التي هي أصغر الأشياء، في وزنها وهيئتها، مما يحتقره الإنسان ﴿ فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِي ٱلْأَرْضِ ﴾ أي: تقع هذا الخردل المتناهي في صغر حجمه في وسط صخرة، بحيث لا ينتبه لها الإنسان، ولا يلقي لها شأن، بل وربما لا يراها لصغره، أو كانت في مساحة السماء الواسعة التي تضيع فيها الأحجام لعظيمة لسعتها، أو تكون تلك الحبة ملقاة في الأرض التي تضيع بين معالمها من الرمال وغيرها تلك الخردلة ﴿ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ ﴾ فإن الله تعالى يأتي بها من بين تلك المساحات الشاسعة، وبين كثرة المعالم التي

تضيع بينها. ليدل على عظيم قدرة الله تعالى، فلا يغيب عنه في ملكه شيء أبداً، مهما كان ضئيلاً صغيراً. بما يفيد لا تحقرن شيئاً، وتستبعده لحقارته، على أن الله تعالى لا يحاسب عليه ويهمله، سواء كان من خير أو شر. فإن الله تعالى سيأتي بكل ما يكون من الإنسان؛ مهما قل أو صغر من الخير والشر، فإن الإنسان سيحاسب عليه، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر، إلا أن يعفو الله تعالى بكرمه وإحسانه.

ثم يخبر لقمان ابنه بما يناسب الموعظة من أسماء الله الحسنى وأوصافه العليا سبحانه وتعالى ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴾ فإن الله تعالى مُتصف بكمال اللطف وعظيم العلم ودقته. وأنه لطيف باستخراجها، وخبير بموقعها. وبدأ الإخبار والإعلام لابنه بنون التوكيد التي تؤكد ما بعدها ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ ﴾ أي: إن الله تعالى لطيف في دقة المجيء بها من مكانها، مهما كانت ضائعة في ذلك المكان، فلا تخفى عليه خافية، فكل شيء عنده علانية، لأنه ﴿ خَبِيرٌ ﴾ أي عالم بمواقع الأمور، وخفايا الأشياء. فمن كانت هذه صفاته المجيدة سبحانه وتعالى، فلا يغيب عنه شيء أبداً، فهو خبير بموضعها، سواء كانت في صخرة أو في السماوات أو في الأرض. وفي هذا الإخبار الدقيق ما يغرس في الابن، أو الْمُخَاطَب والْمُتَلَقي الانتباه، واليقظة، والحرص والتحرص من فعل الذنوب، حتى من أصغر الصغائر، والوقاية والتوقي منها بكل حذر، وكذلك بأن لا يحتقر من المعروف شيئاً أبداً، مهما كان في نظره زهيداً، فإن الله تعالى يُثيب عليه، ويضاعفه أضعافاً مضاعفة. وفي هذا بيان لكمال قدرة الله تعالى ولطفه وعلمه الذي شمل جميع مخلوقاته، وتحركاتهم، وأماكنهم، فلا يغيب عنه من خلقه شيء، وهذا العلم بأن الله تعالى لطيف خبير يقوي إيمان العبد، ويغرس فيه الحرص، والاجتهاد في الطاعة، والبعد عن المعصية. فسبحان الله اللطيف الخبير.

ومن دلائل وفوائد قوله تعالى ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴾ أي كيف لا يعلم وهو اللطيف الخبير؟ قال السعدي رحمه الله تعالى: الذي لطف علمه وخبرته حتى أدرك السرائر، والخفايا والخبايا والبواطن، ومن لطفه أنه يسوق عبده إلى مصالح دينه، ويوصلها إليه بالطرق التي لا يشعر بها العبد، ولا يسعى فيها، ويوصله إلى السعادة الأبدية، والفلاح السرمدي من حيث لا يحتسب[١] وذكر ابن الجوزي رحمه الله تعالى أقوالاً في من المعاني، قال أبو سليمان الخطابي: هو البر بعباده، الذي يلطف لهم من حيث لا يعلمون، ويسبب لهم مصالحهم من حيث لا يحتسبون، وقال ابن الأعرابي: اللطيف الذي يُوصِل إليك أَرَبَك في رفق، ومنه قولهم: لَطَفَ اللهُ بك[٢] وأفادت دلالة ﴿ خَبِيرٌ ﴾ أن الله تعالى بأعمال عباده خبير، فلا تخفى عليه من أعمالهم

(١) السعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (٢/٥٣)

(٢) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٣/٦٨)

خافية. والخبير من أسماء الله الحسنى، وهو من صيغ المبالغة التي تعطي معنى العالم بما كان وما يكون وما سيكون، والذي لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء. وفي هذا تحذير لمن كفر، وبشارة لمن آمن، بأن الله تعالى عليم بأعمال عباده، وسيوفي كل أحد بما يستحق.

ثم بعد غرس الإيمان، بمعرفة لطف الله تعالى، وقدرته، وإحاطة علمه بكل شيء، وأمر وشأن، يتدرج لقمان في وصيته لابنه نحو العبادات، مما يدل على أن شأن العبادات قائم على ركيزة الإيمان، فقال ﴿ يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱنۡهَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ ﴾ فَوَجَّه ابنه إلى أهم العبادات وأعظمها، وهي الصلاة ﴿ يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ أي: أدِّ الصلاة على ما يجب، وفق ما شرع ربنا تبارك وتعالى، فدلالة كلمة الإقامة ﴿وَأَقِمِ ﴾ تفيد: أن يكون أداء الصلاة بكامل أركانها وواجباتها وجميع حدودها، وفي أوقاتها، والمواظبة على ذلك. لأن إقامة الشيء، يفيد كمال الأداء له. وفي الأمر بإقامة الصلاة، ما يستدعي ويتطلب العلم بكل ما تقوم به الصلاة، فهو أمر جامع لخصال العبادات، لأن من أقام الصلاة، أقام غيرها من العبادات، وانتهى بها عن الفواحش والمنكرات. لأن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر.

ثم بعد الأمر بالصلاة التي تمثل العلاقة بين العبد وربه، يأمره بما هو حق لغيره عليه من النصح والإرشاد ﴿وَأۡمُرۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱنۡهَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما: المعروف: مكارم الأخلاق، وصلة الأرحام. وأما المنكر: عبادة الأوثان، وقطع الأرحام، وقال غيره: المعروف: الحق، لأن العقول تعرف صحته، والمنكر: الباطل، لأن العقول تنكر صحته[1] ودلالة كلمة المعروف وافية ومستوفية لكل ما يحبه الله تعالى من الأعمال والأقوال، والاعتقاد، كما هي دلالة كلمة: المنكر، فهي جامعة ومستوفية لكل ما يبغضه الله تعالى من الأعمال والأقوال والاعتقادات. مما يدل على أهمية هذه الشعيرة، وأهمية العمل بها. ومن فوائد الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أنها تعلمه وتُوجب عليه إصلاح نفسه، وتعهدها بالمعروف، واجتناب المنكر، كما أنها تغرس في القائم بها الشعور بمسؤوليته تجاه مجتمعه، ومعرفته لما يحتاجونه من الإرشاد، أمراً ونهياً، كما تُوسّع علاقته بأفراد مجتمعه، وفوق ذلك هي جامعة للصلاح والإصلاح، وأداء هذه الشعيرة شأن متعدي النفع، ليشمله ويشمل من ينصحهم، كما أنها من العبادات التي يبقى امتدادها وتدفقها بالأجر والمثوبة على صاحبها إلى يوم القيامة، فله أجر من تسبب في هدايتهم، ودلالتهم على الخير، وكفهم عن الشر.

---

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (١٨٤/٣)

ولما أن الإنسان مُعَرَّض لمتاعب الحياة، ومشاقها، وما يترتب على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، من الاختلاف مع الناس أوصاه بالمنهج العلاجي، الذي يتعامل به مع ما يصيبه من أمور الحياة، وما يجده عند الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من الأذى، فيرشده إلى أهم وأقوى مرتكز في ذلك ﴿ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ ﴾ فاصبر على كل ما يصيبك، ومن غير استثناء. فبالصبر والتحمل لمشاق الحياة الدنيا ما يجعل المرء يتجاوز الصعاب، ويتجاوز ما يقابله في طريقه من جميع أصناف المكدرات والمعوقات، لأن كل شيء سيمضي وينتهي مهما كانت متاعبه. وأن معية الله تعالى مع الصابرين. مما يبين أهمية الصبر في تجاوز المعوقات التي تواجه الإنسان في حياته. والصبر هو حبس النفس عن الجزع والسخط. مما يبين أن الصبر يحتاج إلى مجاهدة النفس.

ومن دقائق التوجيه الكريم تعميم مجال الصبر، حيث ورد مجاله عاماً ﴿ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ ﴾ فأوقع الصبر على كل ما يُصِيب، فليس هو خاص بشيء محدد بعينه، بل واسع الاستخدام لكل ما يواجه الإنسان. مما يدل على أهمية الصبر، وقوته في استيعاب ما لا بد منه، إضافة لِمَا يتلافى به الإنسان الكثير من المشكلات التي تترتب على عدم الصبر، خاصة في مقابلة الأذى، الذي لا يستطيع إزالته الإنسان بالمعروف.

ثم يحفزه وينشطه ويرغبه فيما ذكر له من المذكورات السابقة من خلال بيان فائدة وقيمة ونفاسة مردود ذلك عليه ﴿ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴾ فإن تلك الطاعات المذكورة لك آنفاً، التي أشار إليها بجملة ﴿ إِنَّ ذَٰلِكَ ﴾ والتي هي: الصلاة، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، والصبر على المصاب، فهي ﴿ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴾ من مكارم وأعالي وأنفس الأمور التي أمر الله تعالى بها. وأنها من الأمور التي يجب أن يجزم ويعزم عليها الإنسان، مما يدل على أنها تستوجب مجاهدة النفس لنفاستها، وبما تتقوى بها العزيمة، التي هي قوة الإرادة. فقوة الإرادة هي التي يقوم عليها العمل بالعلم. ولذلك ورد في الحديث قوله صلى الله عليه وسلم (اللهم إني أعوذ بك من الهم والحزن، والعجز والكسل) فالعجز: وجود الإرادة مع عدم وجود القدرة. والكسل: وجود القدرة، مع عدم وجود الإرادة، التي هي العزيمة. وهذا يبين أهمية تعاهد الأبناء بالتوجيه والمواعظ والنصح، مع الدعاء لهم. وأن أمور الحياة مبنية على الصبر، إما الصبر على تحصيله وطلبه، أو الصبر عليه، أو الصبر عنه، والتي لا يمكن تعدادها ولا حتى يتسع المقام لذكرها وتعدادها، وتنوع حالاتها.

وبعد العناية بالعبادة، وما يتعلق بالنشاط الاجتماعي من خلال الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ينتقل لقمان في توصيته لابنه إلى النهي عن ما يناقض مكارم الأخلاق ﴿ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴾ فيوجهه إلى المنهج الأخلاقي في التعامل مع الناس ﴿ وَلَا

﴿تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ﴾ لا تَعْرِض عن الناس تكبراً، وتفاخراً عليهم، استصغاراً لهم بما أنت فيه من الخير. والتصعير هو الميل، فلا تميل بوجهك إعراضاً وتكبراً عليهم. وفي النهي عن التصعير ما يدل على التكلف، أي: لا تكن ممن يتكلف الإعراض ويتصنع ذلك. بإظهار الاستكبار. وبما يفيد النهي عن احتقار الغير، واستصغارهم، والتقليل من شأنهم لأي سبب من الأسباب. بل عاملهم بطلاقة الوجه، ورحابة الصدر، لأنها مما يُقوى أداء الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فمن صعر خده، وتبختر وتكبر، فإن الناس لا يقبلون منه معروفاً، ولا نهياً عن منكر، وهو متحلي بأكبر المنفرات، وهو الكبر، واستصغار الغير. بل ويتنافى مع مكارم الأخلاق، ومع إقامة الصلاة التي تنهى عن الفحشاء والمنكر.

ثم يستمر في النهي عن المزيد من منكرات الأخلاق الاجتماعية، فينهاه عن المشي المتلبس بالخيلاء، والحامل لدلالة الكبر، فكما أن الواجب بأن لا تواجه الناس كبراً وإعراضاً بوجهك، فكذلك ﴿وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا﴾ أي: خيلاء وفرحاً بنفسك. قال ابن عاشور رحمه الله تعالى: المرح فرط النشاط من فرح وازدهاء، ويظهر ذلك في المشي تبختراً، واختيالاً، فلذلك يُسمى ذلك المشي مرحاً[١] واختيالاً. ثم يبين له سبب وعلة ما يُوجِب التواضع ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ فإن الله تعالى لا يحب كل مختال، أي: متعالي بنفسه، ومزهواً بها ﴿مُخْتَالٍ﴾ وهو من الخيلاء: كما ذكر الراغب الأصفهاني: أنه التكبر عن تخيل فضيلة تراءت للإنسان من نفسه[٢] وهو التعالي بالنفس نتيجة تصور قد تصوره عن نفسه، فدفعه للاستعلاء على غيره.

والفخور ﴿فَخُورٍ﴾: هو الذي يباهي بما عنده من مال أو جاه، أو قوة، أو غير ذلك مما هو مجال للمفاخرة. والفرق بين المختال والفخور هو أن المختال هو: ذو الخيلاء أي الكبر، المترفع على غيره، حتى أنه إذا أعطى، يكون عطاؤه بكبر وترفع على الْمُعْطَى. وأما الفخور: فهو الذي يعدد مناقبه وإحسانه ومعروفه كبراً، وفي ذلك بذخ وتطاول بنفسه على غيره. وهذا لا يُرضِي حتى من أُحْسِنَ إليه. بل فيه أذى ومذمة له. فيكون بهذا الأسلوب قد خرج الْمُعْطِي بمعروفه إلى شر الأخلاق ومنكراتها. فمن كانت هذه أخلاقه، فإن الله تعالى قد نفى حُبَّه له ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ بما يفيد أن نفي المحبة يدل على بغض الله تعالى له. ومن نفى الله تعالى حُبَّهُ عنه فقد خسر خسراناً مبينا. بما يفيد النهي والتحذير والتهديد الشديد، وما يلحقه من العقاب. لأن نفي المحبة عقوبة، وكفى بها عقوبة رادعة. وفي هذا دليل على بغض الله عَزَّ وجل لهذه الأخلاق

---

(١) ابن عاشور، التحرير والتنوير (٨/٨٢٥)

(٢) الراغب الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن (١٦٢)

السيئة، ولمن تخلق بها. فمن عظيم التنفير عنها أن ورد النهي بنفي حُب الله تعالى لمن تخلق بهذا الخلق المشين، الكريه.

وجاء التوجيه الرباني ببلاغة عظيمة، إذ تضمنت هاتين الخصلتين جميع صور السلوك السيء في لفظتين ﴿ مُخۡتَالٍ فَخُورٍ ﴾ بل من شدة قبحها ورذالتها أنه حتى ولو اقترنت بالبر، فإن المبرور يكره صاحبها، فيكره من أوصل له البر بهذا الاقتران من الفخر والخيلاء. ومثاله: كأن يعطي ويساعد محتاجاً وهو مفاخر، ومتفاخر عليه، فإنه بذلك الاقتران قد نقل البر من الخير إلى الشر، ومن الفضيلة إلى الرذيلة. فأبانها الله تعالى وأظهر حقيقتها بأحسن وأبدع البيان، فسبحان من جعل من مظاهر إعجازه: نظمه وبيانه، وتعليمه وإرشاده. قال الشوكاني رحمه الله تعالى: وليس منه التحدث بنعم الله تعالى، فإن الله عَزَّ وجل يقول في سورة الضحى ﴿ وَأَمَّا بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثۡ ۝١١ ﴾[1] فمن تحدث بالنعمة على سبيل الخير، والتعليم، والتوجيه، وإشعار غيره بالرجاء في الله تعالى فإنه محمود، لصفاء النية والغاية والهدف، واقترانه بالتذلل لله تعالى، والاعتراف برحمته ونعمته عليه.

فهذه التوصية والتوجيه من لقمان لابنه فيها تصحح لمسيرة الإنسان مع غيره، بأن يكون في تواضع من جميع أوجه التعامل، سواء في هيئة المشي على الأرض، أو عند لقاء ومقابلة الناس ومواجهتهم، فيكون متواضعاً في جميع علاقاته وهيئته. مما يبين أن هذا الدين قائم على مكارم الأخلاق حتى في خطوات الإنسان على الأرض. وأن شريعة الله تعالى في جميع الأزمان ترتكز على أصول ثابتة، والتي منها: التوحيد، وعموم الإيمان، والصلاة، والزكاة، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ومكارم الأخلاق، فالحمد لله على نعمة هذا الدين العظيم. اللهم إنا نعوذ بك من الفخر والخيلاء، وجميع منكرات الأخلاق، وارزقنا اللهم التواضع، ومحاسن الأخلاق يا رب العالمين.

ثم يستمر التوجيه الذي يركز على التواضع في العديد من الأوجه المختلفة من السلوك مع الغير ﴿ وَٱقۡصِدۡ فِي مَشۡيِكَ وَٱغۡضُضۡ مِن صَوۡتِكَۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلۡأَصۡوَٰتِ لَصَوۡتُ ٱلۡحَمِيرِ ﴾ فيأمر لقمان ابنه ويوجهه إلى التوسط والاعتدال في خطوات وهيئة المشي ﴿ وَٱقۡصِدۡ فِي مَشۡيِكَ ﴾ ليكن مشيك قصداً، معتدلاً بين طرفين متضادين. فلا يكن تبختراً وخيلاء، ولا متباطئاً، متماوتاً، فامش بالوقار والسكينة. فالمشي المنهي عنه هو ذلك المشي الذي دوافعه الخيلاء والكبر، سرعة أو تماوتاً وبطأ. أي: وكن متواضعاً ومعتدلاً في خطوات مشيك، وهيئتك وأنت تمشي، بأن يكون قصداً، لا متباطئ، ولا مسرعاً السرعة التي تحمل البطر والتكبر.

---

(١) الشوكاني، فتح القدير (٢٣٥/٤)

ثم انتقل به إلى الطريقة الصحيحة في الصوت عند التحدث والمخاطبة والتخاطب مع الغير ﴿وَٱغۡضُضۡ مِن صَوۡتِكَ﴾ واخفض وأنقص من قوة صوتك، بأن لا ترفعه ما لم يستدع الأمر ذلك، فليكن صوتك بما يجعلك تُوصل كلامك لغيرك بوضوح، ولا تتجاوزه. لأن غض الصوت أدب رفيع، يدل على السَّمة الحسن. والبعد عن الخيلاء. ثم يؤكد لابنه هذا النهج بالوصف المماثل لمن يرفع صوته من غر حاجة ﴿إِنَّ أَنكَرَ ٱلۡأَصۡوَٰتِ لَصَوۡتُ ٱلۡحَمِيرِ﴾ إن أقبح وأبشع الأصوات المنكرة عند الناس هي أصوات الحمير، التي ينفر الإنسان منها. فلا تماثلها عند حديثك وخطابك لغيرك. مما يدل على رُقي منهج الإسلام وآدابه، التي تعلم الإنسان حتى كيف تكون درجة صوته مع غيره.

ومن دقائق البيان مجيء التبعيض في الصوت ﴿وَٱغۡضُضۡ مِن صَوۡتِكَ﴾ بحرف ﴿مِن﴾ الذي يفيد: ليس المنع، بل أغضض بشيء من صوتك، ليتناسب مع المقام الذي أنت فيه، وليستوعب أنواع وحالات الأصوات البشرية كلها، فهناك جهور الصوت، وهناك المنخفض، وبينهما درجات متفاوتة، وهناك المتعمد في رفع الصوة، فاستوعب البيان تلك الدرجات والحالات، ليردها إلى الاعتدال، وأن لا يتكلف الإنسان برفع الصوت من غير حاجة ملحة، بما يشبه ويشابه صوت الحمير. وقد أكد البيان التوضيحي ذلك بمثال دقيق في إظهار شناعة رفع الصوت بالأصوات المنكرة من فئة الحمير. فكان غاية في دقة تحرير المقصد والمراد، باختيار أقبح وأشنع الأصوات وأكرهها عند الناس.

كما أورد نكران الصوت بكلمة ﴿أَنكَرَ﴾ التي تفيد الأكثر نكراناً من غيره من الأصوات الشنيعة، بما يفيد أن صوت الحمير هو أنكرها، وإن كانت هناك غيرها من الأصوات المنكرة، إلا أن الحمير أشدها على الإطلاق. وورد صوت الحمير مفرداً ﴿لَصَوۡتُ ٱلۡحَمِيرِ﴾ بينما تم ذكر الحمير بصيغة الجمع، ليفيد أن صوتها واحد في النكارة على كثرتها. وهذا غاية في الإعجاز البياني. مما يعلم الإنسان كيف يحرر مراده، وكيف يصوغ سياقه. وفيه التمثيل والتشبيه في التعليم، لتقريب الصورة من ذهن وفهم المتلقي. وفيه عظمة وجلال كتاب الله تعالى القرآن العظيم، ومميزاته في التعليم.

كما يفيد هذا أهمية أداء المسؤولية التربوية تجاه الأبناء، بالوصاية والتنبيه، ومخاطبتهم بأحسن الخطاب الذي يُرغبهم فيما يُقال لهم. وكذلك فيه أهمية ترتيب الأولويات، حيث بدأ البيان بالعقيدة والإيمان، ثم العبادات، ثم ما يتعلق بحقوق المجتمع، ثم بالآداب الاجتماعية، بالنهي عن أضدادها، التي تُنَفِّر الناس حتى من صاحب المعروف المتلبس بأنكر الأخلاق. بما يفيد أن الناصح مهما كان نصحه مستوفياً للحق، فإن بوابة القبول له هي

الأخلاق مع الناس، بحسن التعامل والتواضع معهم، وبأن لا يَرَى الإنسانُ في نفسه العلو على غيره. لأن المعطي هو الله سبحانه وتعالى، وهو الذي فَضَّل بعض الناس على بعض بحكمته، وكريم تقديره وفضله سبحانه وتعالى.

﴿أَلَمْ تَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً ۗ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ﴿٢٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۚ أَوَلَوْ كَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٢١﴾ ۞ وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٢٢﴾ وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُۥٓ ۚ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓاْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٢٣﴾ نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٢٤﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٥﴾﴾

ينتقل ويتجه البيان الكريم إلى الغافلين عن إنعام الله تعالى عليهم، فانحرفوا في عقائدهم إلى الشرك، فيلفت ربنا تبارك وتعالى انتباههم إلى ما سخره وطوعه لهم من المسخرات المتعددة، التي تدل على أنه الله لا إله إلا هو، وحده لا شريك له. فقال تبارك وتعالى ﴿أَلَمْ تَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً ۗ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ﴾ ألم تروا وتشاهدوا أيها الناس ما سخره ربكم لكم مما في السماوات، من النجوم والكواكب، والشمس والقمر، وكذلك ما سخره لكم في الأرض من الخيرات التي تلبي حاجاتكم، من الزروع والدواب والماء، وغير ذلك. وعمكم بنعمه وفضله الظاهرة التي ترونها وتحسونها بحواسكم، والباطنة التي لا ترونها كالعقول والقلوب، والقدرات من التفكير، والاستنتاج، والتفضيل والاختيار، والتي يظهر أثرها على تصرفاتكم.

وقد بدأ التوجيه الكريم بلفت الانتباه للناس جميعاً، من خلال السؤال الموجه للذين هم في غفلة عن تسخير الله تعالى لما في السماوات والأرض من أجل هذا الإنسان، وهو سؤال عن علة بُعد مَن ابتعد عن طاعة الله تعالى، وعن توحيده، وإفراده بالعبادة، وطاعة رسوله صلى الله عليه وسلم مع توافر هذه الآيات والدلائل والإنعام المبثوثة في الكون من كثرتها ﴿أَلَمْ تَرَوْاْ﴾ وهو سؤال استنكار عن ذهول عقولهم عن آياته المبثوثة في السماوات والأرض، وكذلك هو سؤال يقرر لهم به الأدلة التي رأوها وشاهدوها، وتعايشوا معها،

وعرفوها معرفة لا ينكرونها، بأنها شواهد شاهدة على إفراد الله تعالى في ألوهيته، وربوبيته، وعبوديته، وأنه لا شريك له في ملكه، ولا شريك له في عبوديته وربوبيته عَزَّ وجل.

وهو كذلك استفهام توقف وتدبر ﴿أَلَمْ تَرَوْا﴾ فأين عقولكم عن هذا التسخير الذي ترونه بأبصاركم، ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ ألم تروا بأعينكم وبصائركم، ما يثير عقولكم نحو تدبر هذا التسخير العظيم الدال على قدرة الله تعالى، ووحدانية ربكم عَزَّ وجل، وعظمته، وقوة سلطانه. فتنكرون وتكفرون عظمة نعمة ربكم عليكم، حيث هيأ وسخر وطَوَّع لكم ما في السماوات، لتنتفعوا بها أحسن الانتفاع وأكمله، ومن ذلك أن سخر لكم النجوم لتهتدوا بها في أسفاركم، واتجاهاتكم، وسخر لكم الرياح تنقل لكم الأصوات بينكم، ويجمع الله تعالى لكم بها السحاب، وينزل عليكم بها المطر. أليس في هذا التسخير دلالة على أن لهذا الكون خالق، هو رب كل شيء ومالكه، ويتبين لكم بها عظيم قدرته سبحانه وتعالى، وعظيم سلطانه، وكيف جانس وواءم بين المسخرات وبين حاجات الناس جميعاً.

وكذلك ألم تروا تسخير الله تعالى لكم ما في الأرض ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ فَطَوَّع لكم النبات والزروع، والبهائم، وسخر لكم وجود الماء، وسخر لكم الفلك، وسخر لكم الأنهار، وسخر لكم المعادن المتنوعة، وسخر لكم ما تشيدون به المنازل والقصور، ومن الدواب ما تركبون، وتنقلون عليها أمتعتكم، وتجارتكم، وتقطعون بها المسافات في الأسفار. بل جعل الموجودات في كثرتها وقلتها بحسب حاجة الإنسان، فكلما زادت حاجته لشيء أوجده بسابق علمه سبحانه وتعالى أكثر من الذي تقل حاجة الإنسان إليه، كالهواء الموجود في كل مكان، بل إنه مختلط بالإنسان أينما حل وارتحل، وذلك لشدة حاجته، فلا يستطيع أحد أن يمنعه عن أحد، وأوجد الذهب بأقل من الفضة، والفضة أقل من الحديد، ليوائم حاجة الإنسان. ولابن القيم رحمه الله تعالى كلام نفيس جداً في هذا الموضوع، في كتابه: مفتاح دار السعادة.

وكذلك ألم تروا وتتفكروا في أن الله تعالى عمكم بنعمه الظاهرة والباطنة ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ والإسباغ هو كمال الإتمام والتفضل بالإنعام الكثير الواسع ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ﴾ فقد أكثر عليكم من الإنعام بالنعم التي لا حصر لها. وأوردها تبارك وتعالى بصيغة التنكير ﴿نِعَمَهُ﴾ لتفيد التعظيم والتفخيم، والتعدد، والتنوع، والكثرة. وهي تنقسم إلى نوعين: قسم ظاهر ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً﴾ وهي الظاهرة والبارزة من وضوحها، فلا ينكرها أحد، مثل: السمع والبصر، والنطق، والكلام، وحُسن الخلقة، وما تستترون به من الملابس، وما سخر من الأغذية والأطعمة والمشروبات، والظلال، والهواء، والزروع

والأمطار، والأنعام، وغيرها مما لا يعد، وأعظمها نعمة الإسلام الظاهرة، ونعمة التوحيد، والعبادات، وإفراد الله تعالى.

والنوع الثاني: هي النعم الباطنة ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ وهي النعم التي يجد الإنسان أثرها ولا يراها: فمنها ما هو داخل الإنسان، كالروح، والعقل، وأعمال القلوب، والتفكير، والحواس الخفية، كالعواطف، وأنواعها ودرجاتها، مثل: الحب، والكره، والبغض، والخوف، والرُّعب، والطمأنينة، والقلق. ونعمة الإيمان التي مكانها القلب، ويظهر أثرها على السلوك. وجميع ما يدور داخل الجسم ويعمل، ومنها الهواء، الذي هو ضمن الباطن من حيث رؤيته، وظاهر من حيث الشعور به، وبأثره في نقل السحب، والأتربة، والخفيف من الأشياء.

بما يفيد أن واجبكم تجاه هذا الإنعام العظيم أن تشكروا الله تعالى، وتوحدوه، وتمتثلوا لما جاءكم به رسوله صلى الله عليه وسلم. مما يفيد كذلك أهمية التفكر والتأمل في النفس، وفي الآفاق، وفي الأحداث، وتسييرها، ومساراتها، وتقلبها أحيانا على غير مراد العباد، ليعلم الإنسان أن المدبر هو الله تعالى، بما يمنعه أحياناً، وما ييسره، وما يبطله، وما يجعل نتيجته أحسن أو عكس وضد ما أراد المريد من الناس.

مما يفيد أهمية لفت ذهن المتعلم إلى المحسوس، ليستدل به على غيره من المحسوسات والمغيبات التي يتم إخباره عنها، مما غاب عنه من المغيبات، ليرتقي بعقله في الفهم والتحليل والاستنتاج. فهو استفهام استنكار وتعجب من جهلهم، وتغافلهم عن المحسوسات الدالة على صدق ما يُخبَرُون به من المغيبات. فمن كانت قدرته قد خلقت السماوات والأرض أمامكم، وهي في غاية العظمة، وسخرها لكم، وأسبغ عليكم نعمه، ظاهرة وباطنة، فإنه من باب أولى أن يكون قادراً على إعادة الخلق بعد الفناء، وأنه الرب الذي ليس هناك رب سواه سبحانه وتعالى.

ومع هذه الشواهد، وهذه الدلائل العظيمة على أن الله تعالى وحده لا شريك له هو رب كل شيء ومالكه، فإنه ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ﴾ فبالرغم من شواهد الحق، ودلائل التوحيد، وموجبات الطاعة إلا أن هناك من الناس، وليس جميعهم ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾ فهي تفيد التبعيض، أي بعض الناس من يجادل ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ﴾ ينازع ويخاصم، ويغالب، ويعترض، وهذا الجدال فارغ من العلم ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ يجادل في ذات الله سبحانه وتعالى، في توحيده وإفراده بالعبادة، وفي كتابه، وتشريعه. واسمائه وصفاته. وجداله هذا بغير علم ﴿يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ فجداله خال من ثلاثة قواعد وأمور:

الأول ﴿بِغَيۡرِ عِلۡمٖ﴾ فيخاصم وينازع وهو ليس عنده العلم والمعرفة، وإنما فقط لمجرد الجدال، المبني على الجهل، فيجهل ولا يريد أن يأخذ بما دل عليه الشاهد والدليل. والأمر الثاني: انتفاء الهدى ﴿وَلَا هُدٗى﴾ وليس عنده بيان واضح، يحمل الدلالة الهادية والموصلة للحق، فيهتدي به المهتدون. فهو خال من العلم وخال وفارغ أيضاً من دلالة الهدى. والأمر الثالث: ﴿وَلَا كِتَٰبٖ مُّنِيرٖ﴾ ليس عنده دليل من كتاب فيه حقائق مستنيرة بما هو عليه، وظاهرة وواضحة به، فهو خال من جميع أنواع ومصادر المعرفة التي تشكل الأدلة والبراهين على عناده وجداله. مما يفيد: أن قواعد المجادلة تقوم على الحقائق المعقولة، والحقائق المنقولة الموثوقة التي تظهر بالحق، والحق فيها ظاهر بائن. كما يفيد ذلك أن دلائل دين الله تعالى موافق للأدلة الكونية، وللمعقول، بالفكر والتأمل، وموافق للمنقول عن الله تعالى بكتابه القرآن العظيم، وبهدي خير المرسلين صلى الله عليه وسلم. فأدلته مبنية على العلم وعلى الهدى، وعلى الكتاب المنير التي يفقدها الجهال، المجادلون بغير علم ولا هدى، ولا كتاب منير. فنحمد الله تعالى على نعمة الإسلام. ومن فوائد ذلك كذلك، أن كل عمل ديني ليس عليه دليل فهو باطل، وكل مخترع في الدين من غير دليل فهو مردود، وبهذا يتصدى منهج دين الله تعالى لكل من يُدخل في الدين ما ليس منه، وليس له دليل.

ثم يخبر الله تعالى بعنادهم المبني على جهلهم، من خلال ردودهم حين يُدْعَون إلى اتباع ما أنزل الله تعالى، فإنهم يحتجون بما ورثوه عن أسلافهم ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلۡ نَتَّبِعُ مَا وَجَدۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآۚ أَوَلَوۡ كَانَ ٱلشَّيۡطَٰنُ يَدۡعُوهُمۡ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾ فإذا طُلِب منهم اتباع الحق الذي عليه الدليل والبرهان، والذي نزل من الله تعالى على رسوله صلى الله عليه وسلم، وهو القرآن العظيم ﴿قَالُواْ بَلۡ نَتَّبِعُ مَا وَجَدۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآ﴾ فكان ردهم واحتجاجهم بأنهم مقلدون لأسلافهم من غير حجة ودليل، وبالتالي يشركون كما كان أسلافهم يشركون، ويحرمون ما كانوا يحرمون. وهي ادعاء باطل لا دليل ولا برهان عليه غير التقليد والمتابعة من غير علم ولا هدى ولا كتاب منير. مما يفيد خطر التقليد من غير حجة ودليل مبين. وأن منهج الإسلام في الاتباع قائم على الحجة والبرهان، ولذلك جاء بالدليل العقلي والنقلي. ليربي في اتباعه التمحيص والفحص، واتباع ما ورد فيه الدليل، فتنضج بذلك العقول، وترتقي الأفهام. مما يفيد أن كل من اخترع اختراعاً في الدين فهو باطل.

ثم يأتي بعد ذلك إبطال تفكيرهم وما ساروا عليه من التقليد، بقياس ذلك التقليد على أنهم يتبعون من اقتدوا بهم، حتى ولو وصل بهم الأمر أن الشيطان يدعوهم للوقوع في عذاب جهنم المسعرة بالنار ﴿أَوَلَوۡ كَانَ ٱلشَّيۡطَٰنُ يَدۡعُوهُمۡ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾ فهو استفهام إنكار وتعجب مما وصل إليه حالهم، وفيه

كشف لعمق فساد احتجاجهم، بأنه حتى ولو في ذلك الاتباع لأسلافهم دعوة من الشيطان لإدخالهم في عذاب الله تعالى لاتبعوه. مما يدل على فظاعة وقوة ضلالهم. وفي هذا كشف لقوة عنادهم، واستكبارهم، وتشبثهم بالتقليد الأعمى الذي خلا من الدليل والبرهان.

وبعد أن ذم سبحانه وتعالى مسلك المشركين الذين أسلموا وجوههم للشيطان، بالانحراف عن الحق، ورفضه، يبين الله عَزَّ وجل حقيقة من اتبع الهدى، وما هم عليه من الخير ﴿وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ﴾ فمن يخضع وينقاد لربه سبحانه وتعالى بالطاعة وهو محسن فيها، فقد استمسك من الدين بأقوى أسباب التعلق به. ولاستسلام في قوله تعالى ﴿وَمَن يُسْلِمْ﴾ هو الانقياد التام، أي أعطى كمال الطاعة، وعبر بالوجه ﴿وَجْهَهُۥٓ﴾ لأن الوجه مكان الإقبال والتوجه ﴿وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ فهو انقياد وكمال طاعة، بأن انقاد وأعطى كمال الطاعة باستسلام وجهه ﴿إِلَى ٱللَّهِ﴾ فانقاد بكامل الانقياد لله تعالى، فيختار ما اختاره الله تعالى، وينتهي عما نهى الله عنه عَزَّ وجل. وقد اتصف في هذا لاستسلام بالإحسان ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ والمحسن هو من امتثل بالطاعة، وأداها كما شُرِعت، مخلصاً بها لله تعالى، فيكون عابداً لله تعالى بمثل ما ورد في الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في تعريفه للإحسان (أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه، فإنه يراك)[1]

ودلالة الإحسان تفيد جميل التعامل والتدبير في كل شأن وأمر، سواء ما كان مع الله تعالى أو مع الخلق، وقد ذكرها الله تعالى في مطلع هذه السورة المباركة، فقال الله عَزَّ وجل ﴿هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ ﴿٣﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾﴾ فهم العاملون بالحسنات، مع الله تعالى في التوحيد والعبادات، ومع عموم الخلق في المعاملات.

فمن كان كذلك كما ذكر سبحانه وتعالى، فإنه استمسك بأقوى ما يمنعه من المخاطر ﴿فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ﴾ والعروة الوثقى هي: أقوى معالم الدين، التي من أخذ بها فقد تحصل على قوة ما يتعلق به من الشريعة، فالعروة هي الشيء الذي يتعلق أو يُعلق به الشيء، فيمسكه فلا يسقط. قال ابن كثير رحمه الله تعالى: أي فقد استمسك من الدين بأقوى سبب، وشبه ذلك بالعروة الوثقى، التي لا تنفصم في نفسها، مُحْكَمَةٌ مُبْرَمَةٌ قوية. وربْطُها قوي شديد. وقال مجاهد: العروة الوثقى، يعني الإيمان، وقال السدي: هو الإسلام، وقال

(١) البخاري، الجامع الصحيح (٣٣/١) برقم (٥٠)

سعيد بن جبير والضحاك: يعني، لا إله إلا الله. وعن أنس بن مالك: العروة الوثقى، القرآن. وعن سالم بن أبي الجعد، قال: هو الحبُ في الله، والبغض في الله. وكل هذه الأقوال صحيحة ولا تنافي بينها[1] وهذا يدل على عظمة كلام الله تعالى، إذ كيف استوعب كلامه سبحانه وتعالى دلالات المعاني، وجميع مراده، فاستوعبت جملة ﴿بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ﴾ جميع هذه المعاني والدلالات. فسبحان من استوعب كلامُه مراده بأحسن وأبلغ بيان، وبأعظم الألفاظ، فقد تعاظمت الألفاظ بما استوعبت من كلام رب العباد، فالشكر والحمد لله رب العالمين.

ثم يخبر سبحانه بأقوى محفز للطاعة، وأقوى ترهيب لمن هجر طاعة ربه، فقال تعالى ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلۡأُمُورِ﴾ فإن جميع مرجع الأشياء عائدة إليه سبحانه وتعالى، ومنها عودتكم لربكم يوم القيامة، فيجازي كلاً بما قدم من الخير أو الشر. ومن دقائق البيان أن استوعبت كلمة ﴿ٱلۡأُمُورِ﴾ أن مبدأ الأمور ومرجعها جميعاً عائد إلى الله تبارك وتعالى. وتعني ﴿عَٰقِبَةُ ٱلۡأُمُورِ﴾ خاتمة الأمور. فعاقبة الشيء خاتمته ونهايته التي يصل إليها، بما يفيد أن مبدأ الأمور ومرجعها جميعاً عائد إلى الله تبارك وتعالى. وفي هذا بشارة للمؤمنين، بأن عودتهم بعد الموت لربهم عَزَّ وجل. وفيه ترهيب ووعظ وتحذير للمنصرفين عن طاعته عَزَّ وجل بأن مرجعهم له سبحانه وتعالى، فيحاسبهم ويعاقبهم على ما كان منهم.

وبعد أن أخبر الله تعالى بحال من صَلُح إسلامه، وأنه قد استمسك بالعروة الوثقى، يخبر الله تعالى عن حال من كفر ﴿وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحۡزُنكَ كُفۡرُهُۥٓۚ إِلَيۡنَا مَرۡجِعُهُمۡ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ اتجه الخطاب إلى النبي صلى الله عليه وسلم بأن لا تشغل بالك بمن كفر، فتحزن عليهم ﴿وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحۡزُنكَ كُفۡرُهُۥٓ﴾ فإن مَن اختار الكفر أيها النبي فلا تحزن على كفره واختياره الباطل. وفي ذلك إثبات وتزكية للنبي صلى الله عليه وسلم أنك أديت ما يجب عليك، وأجرك ثابت لك، وبالتالي لا تفكر في اختيارهم الكفر على الإيمان، وأن مصيرهم سائر إلى النار. مما يفيد أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يُحزِنُه من كفر، فيتألم لكفره، وذلك لشفقته، ورحمته لهم، لما يعلم من عاقبة الكافر من العذاب المهين، ورغبته في أن ينالوا النعيم المقيم. والحزن هو الغم والكدر والكرب إثر كُفر من كفر بعد دعوتهم للإيمان والإسلام.

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٣١٩/١)

ثم يخبر الله تعالى بما سيكون من حالهم يوم القيامة ﴿إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ﴾ فمرجعهم وعودتهم إلينا حاصلة، وحينها ﴿فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓاْ﴾ فنخبرهم بما كان منهم من الصد والتكذيب، ونوفيهم الجزاء الذي يستحقون ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ فإن الله تعالى ﴿عَلِيمُۢ﴾ مبالغة في معرفة دقائق أعمال الإنسان، فعلمه عَزَّ وجل هو علم تام وكامل بجميع ما كان منهم، وخص الصدور لإظهار دقة علمه تبارك وتعالى ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ عليم بما تكنه وتخفيه الصدور في جوفها، من النوايا وغيرها مما يدور في الصدور، فكيف إذاً بما ظهر منها، فالذي أحاط علمه بالصدور، فإنه من باب أولى قد أحاط بظاهر العباد. وكان شاهداً على أصحابها. وهذا البيان بدقة علم الله تعالى يقوي إيمان المؤمن، ويؤكد له أنه لا يخفى على الله تعالى مما يعمل من الصالحات شيئاً، فإنك مُثاب عليها، مما يزيده مراقبة لله تعالى. كما أن هذا العلم للكافر، يفيد التحذير له، وترهيب، وترغيب بأن يترك ما هو عليه من الكفر، ويُسلم وجهه لله تعالى.

ثم يخبر جَلَّ جلاله بحكمه فيهم ﴿نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ فإننا جاعلوهم يتمتعون قليلاً في الدنيا، بإمهالنا لهم، ولا نستعجل عليهم، ليتبين حلم الله تعالى، فإنه حليم، لا يستعجل بالعقوبة، وليعلم المؤمن أن في تأجيل الله تعالى العقوبة لمن كفر بأنه لحكمة يعلمها الله تعالى، وذلك لحلمه عَزَّ وجل ﴿نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا﴾ نتركهم يستمتعون من الدنيا قليلاً. وهذا الامتاع قد يكون في عين ونظر الإنسان كثير، ولكنه قليل جداً بالنسبة للحياة الآخرة، فما الحياة الدنيا بكاملها بالنسبة للآخرة إلا متاع قليل. فبمقاييس الآخرة زهيد جداً ذلك الزمن، وذلك المتاع الدنيوي. فلا يستحق أن يحصر ويجعل الإنسان متعته على الدنيا، بل يفكر في المتاع الطويل الذي لا ينتهي، ولا ينقطع، ولا نصب فيه ولا تعب.

ثم يخبر عَزَّ وجل بما سيكون من حالهم في الآخرة ﴿ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ ثم نلجئهم ونلزمهم دخول العذاب القوي الشديد في قوته، والذي اكتسب الغلظة من شدته عليهم. وفي هذا البيان والإفصاح من الله تعالى لهم، ما يبين أن الله تعالى أراد لهم الخير بهذا التحذير والإنذار والتأجيل، والبيان لما سيكون قبل أن يكون. وبالتالي فمن كفر فقد استحق ما سيكون عليه في الآخرة من العذاب الغليظ. ونسأل الله العافية في الدنيا والآخرة، وحسن الخاتمة.

ثم يخبر الله تعالى عن تناقضهم ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ فلئن سألت هؤلاء المشركين عمن خلق السماوات والأرض، فإنهم يعترفون بالحقيقة ﴿لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ فيعترفون بأن الله تعالى هو خالق السماوات والأرض، إذاً فلماذا تشركون

معه غيره؟ والجواب كما قالوه سابقاً، لأنهم اعتمدوا على تقليد اباءهم. فإذاً احمد الله تعالى يا أيها النبي ﴿ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ﴾ على أنهم شهدوا بالحق، بما يُثبت أن عدم اتباعهم وعملهم بما يجب هو من باب الاستكبار منهم على الحق الذي جئتهم به. ليظهر بذلك سؤال آخر يكبتهم. وهو: فكيف تخالفون ما تُثبتون من الحق؟ فكيف تعبدون الأصنام؟ وتجعلونها شركاء لمن خلق السماوات والأرض؟ ومن دلائل ﴿ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ﴾ أنها تفيد أيضاً: معنى: الحمد لله الذي هدانا لتوحيده، وعبادته وحده لا شريك له، ولم يجعلنا مثلهم.

ثم ينتقل البيان الكريم عن قولهم إلى بيان واقعهم ﴿ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ إن حقيقة الأمر هو أن واقعهم يخالف إقرارهم، وبالتالي فإن أكثرهم لا يعلمون العلم المفضي للعمل به، فإنهم علموا ولم يعملوا، فمن لم يعمل بما يعلم يكون كمن يحمل الخير على ظهره ولا ينتفع به. كالحمار يحمل أسفاراً من العلم، ولا يستفيد مما يحمل شيئاً، فإنهم يحملون الاعتراف بخلق الله تعالى العظيم للسماوات والأرض ولا ينتفعون بهذا العلم، بأن يوحدا الله تعالى وحده لا شريك له، ويتبعوا الرسول صلى الله عليه وسلم. وهذا شأن الجاهلين. مما يفيد أن أهمية العلم هو في العمل بتطبيقه، فإن مَن لم يطبق العلم فهو جاهل بفائدة العلم ومحوره الأساسي الذي هو الانتفاع به، بالعمل والتطبيق. ومن علم ولم يعمل فهو في عداد الجاهلين.

﴿ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٦﴾ وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٧﴾ مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٢٨﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٠﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِنِعْمَتِ ٱللَّهِ لِيُرِيَكُم مِّنْ ءَايَٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣١﴾ وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَٱلظُّلَلِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ ﴿٣٢﴾ ﴾

يقرر الله تبارك وتعالى كمال مُلكه وغناه، وأنه وحده الغني المحمود والمستحق للحمد ﴿ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴾ فإن لله تعالى جميع الموجودات في السماء والأرض، خلقاً

وملكاً وتصرفاً. بما يفيد أنه هو الذي يستحق العبادة وليس المخلوق العاجز عن دفع الضر عن نفسه، وجلب الخير لنفسه. فكيف تذهبون للعاجز وتتركون المالك القادر على كل شيء. وهو الغني عن خلقه، وكل شيء فقير إليه ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ غني عن مخلوقاته التي في السماوات والأرض، فلا ينتفع بطاعة أحد منهم، ولا يضره معصية عاص منهم، وكذلك فإنه ﴿ٱلْحَمِيدُ﴾ المحمود، الذي يستحق الحمد، فله الحمد كله، وليس ذلك لغيره. وجملة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ تفيد قصر كمال الغنى والحمد له عَزَّ وجل، وليس لغيره من المخلوقات، فهو المتفرد بذلك. فكيف يذهب المخلوق لمخلوق مثله، فيعبده ويسأله؟ مما يفيد جهل من عبد غير الله تعالى.

ثم يخبر الله تعالى عن عظمته وجلاله من حيث سعة وعظمة كلامه تبارك وتعالى، فيقول عَزَّ وجل ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ يقرب الله تعالى المعنى العظيم لجلالة كلامه الذي لا يوصف من عظمته وكثرته، فهو لا ينفد، فلا ينتهي، ولا حتى له مُنْتَهَى ينتهي إليه، فكل شيء له نهاية لأنه مخلوق إلا الخالق العظيم سبحانه وتعالى فلا ينتهي، ولا كلامه ينتهي، ولا أسماؤه وصفاته عَزَّ وجل لها نهاية.

ولتقريب المعنى في أذهان الْمُخَاطَبين، أورد تبارك وتعالى هذا المثال العظيم ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ﴾ فلو كانت جميع الأشجار التي في الأرض، تحولت غصونها وفروعها وكل شيء منها إلى ﴿أَقْلَٰمٌ﴾ يُكتب بها، وتحول البحر إلى مداد لتلك الأقلام ﴿وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ﴾ أي: وهذا البحر الذي تحول إلى مداد ﴿يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ﴾ فتزوده وتمده سبعة أبحر بتغذيته حتى لا ينتهي ﴿مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ﴾ ما انتهت كلمات الله تعالى. فإن مياه البحار تنتهي، وتتآكل وتتلاشى تلك الأقلام، وما انتهت كلمات الله تعالى من تتابع أمره وقضائه عَزَّ في علاه، وبالتالي فإن تلك الأقلام لا تسع كلام الله تعالى، فتنتهي وتتآكل، بينما كلام ربي لا ينتهي. وكذلك المداد على كثرته فإنه ينتهي ولا ينتهي كلام ربي سبحانه وتعالى. وليس المقصود بها الحصر في عدد تلك البحار وأشجار الدنيا، بل إن المقصود هو المثال فقط، من أجل تقريب المعنى والتصور، وإلا حتى لو تضاعفت أشجار الأرض والبحار أضعافاً مضاعفة لا حدود لها، فإنها تنتهي، وكلمات ربي لا تنتهي، فإنها لا تستوعب كلمات الله تعالى التي لا تنتهي. فسبحان الله العظيم القادر القدير، العليم، العزيز الحكيم، الذي لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار، وهو السميع العليم، واللطيف الخبير. الذي لا إله إلا هو وحده لا شريك له.

ومن دقائق البيان أن أورد سبحانه وتعالى العدد بسبعة أبحر ﴿وَٱلۡبَحۡرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعۡدِهِۦ سَبۡعَةُ أَبۡحُرٖ﴾ لإفادة المبالغة في الكثرة، وليس تحديداً للعدد، فالعرب تبالغ ببعض الأعداد، كالسبعة، والسبعين، والألف. ومعنى النَّفاد من قوله عَزَّ وجل ﴿مَّا نَفِدَتۡ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ﴾ أي: ما انتهت، فنفى عن ذاته سبحانه وتعالى انتهاء كلامه، سبحانه وتعالى، فأوامره لا تنتهي، وقضاؤه لا ينتهي. وعلم الله لا ينتهي. كما أن كلمات الله تعالى قد وردت بصيغة الجمع ﴿مَّا نَفِدَتۡ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ﴾ لإفادة الكثرة التي لا تنتهي.

ومن دقائق البيان كذلك ورود الشجرة مفردة ﴿وَلَوۡ أَنَّمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ مِن شَجَرَةٍ﴾ لإفادة استقصائها بحرف ﴿مِن﴾ شجرة فشجرة، فلا يبقى منها شجرة إلا وقد جعلها أقلاماً، فيصبح كل شيء فيها يتحول إلى أقلام للكتابة. كما أفاد الجمع للأقلام ﴿أَقۡلَٰمٞ﴾ الكثرة التي لا حصر لها. مما يدل على عظمة البيان في مفرداته وكلماته، واختياراته سبحانه وتعالى، حتى بلغ أعلى ذروة الكلام. فسبحان من أعجز بكلامه عباده.

ثم ختم تبارك وتعالى هذا البيان من أسمائه وصفاته العظيمة بما يناسب المقام، فقال تبارك وتعالى ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٞ﴾ إن الله له كمال العزة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ﴾ أي: الغالب والقاهر لجميع الأشياء، فليس مثله شيء في العزة والانتقام والقهر والغلبة. وهو المتصف بالحكمة، فكل قضاء يقضيه لحكمة، وليس لمجرد القضاء، فهو تبارك وتعالى ﴿حَكِيمٞ﴾ أي: الموصوف بكمال الحكمة في أفعاله وأقواله، وتدبيره لشأن خلقه، وكمال الحكم والعدل، والذي يضع الأمور مواضعها، وينزلها منازلها الحقيقية.

وقد ورد البيان بسعة في التصور، وتقريب الفهم بأدق الأمثلة الموضحة لحقيقة كلام الله تعالى، وبما يرسخ في الذهن أن الله تعالى عظيم في كلامه، وقضائه، وتدبيره، وأمره ونهيه، يقضي ويمحوا وينشئ ما يشاء، فكل شيء قابل لأن يتغير بقضاء الله تعالى وأمره ونهيه، ومن ذلك شأن الإنسان الذي لا ينتهي القضاء فيه، فيقضي بخلقه وولادته، ويقضي بشقائه أو سعادته، ويقضي بشفاء المريض بعد مرضه، وبغناه بعد فقره، وبموته بعد حياته، بل في كل شيء حتى أدق دقائق حياة الإنسان وغيره من المخلوقات التي لا تُعد ولا تُحصى. فسبحان الله الذي عَلَّمَ عباده بما يحتاجون إليه بأدق وسائل التعلم. فله الحمد والشكر كله، تنزه عن الشريك، وعن كل ما لا يليق به عَزَّ وجل.

ثم يخبر الله تعالى بكمال وعظمة قدرته جَلَّ جلاله، وأن من سهولة الأمر أنه لا يتعذر عليه ما يريده أبداً، ومن ذلك خلقكم أيها الناس ﴿مَّا خَلۡقُكُمۡ وَلَا بَعۡثُكُمۡ إِلَّا كَنَفۡسٖ وَٰحِدَةٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ

بَصِيرٌ ﴾ فخلقكم جميعاً، وبعثكم جميعاً بعد الموت والفناء كخلق وبعث النفس الواحدة، لسهولة ذلك على الله الواحد القهار، فلا يتعذر عليه شيء، لكمال قدرته عَزَّ وجل، ثم يبين تبارك وتعالى أن من صفات علمه الجليلة، كمال السمع والبصر، فيقول سبحانه وتعالى ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٌ ﴾ فإن الله تعالى سميع لأقوالكم، وبصير بأفعالكم. فلا يفوت منها شيء أبداً. مما يفيد اعملوا الخير، فإنه لا يفوت من أعمالكم شيء منها، وستجزون عليها. والحذر في الأقوال والأعمال التي فيها معصيته، فإنه لا يفوت منها شيء عليه عَزَّ وجل. وسيحاسبكم عليها. كما يعزز هذا العلم عند المسلم أنه لن يفوت على الله تعالى شيء مما يعمل الإنسان إن خيراً فخير، وإن شراً فشر، فإنه يسمع الأقوال، ويرى الأعمال، فلا يفوت على علمه عَزَّ وجل شيء من شأن عباده. ومن يدرك هذه الصفة لله تعالى تكون ضابطة وموجهة له، فتضبط سلوكه وتوجهه للخير، وتدفعه عن الشر.

ثم ينتقل السياق الكريم إلى بيان عظيم قدرته سبحانه وتعالى، الظاهرة في حركة الليل والنهار، وتسخير الشمس والقمر، وجريانهما في السماء، في تعاقب لا ينقطع، وبدقة متناهية في عظمتها الدالة على عظمة الله عَزَّ وجل ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ وبدأت الآية الكريمة بشد الانتباه عند الْمُخَاطَب بجملة ﴿ أَلَمْ تَرَ ﴾ التي تفيد الاستفهام على سبيل التقرير بما هو معروف ومحسوس ومتقرر عند الْمُخَاطَب من التسخير العظيم. فَيُلْجِئُهُ بذلك إلى الحقيقة والبرهان والدليل المحسوس الذي يعايشه كل لحظة في حياته من أوجه التسخير، ويشاهده بعينه وبصيرته، ويحسه بجميع حواسه، ويستفيد منه في شؤونه المختلفة. وورد الخطاب الاستفهامي ﴿ أَلَمْ تَرَ ﴾ دون تحديد وتعيين فرداً بعينه من الْمُخَاطَبِين ﴿ أَلَمْ تَرَ ﴾ ألم تشاهد أيها المخاطب، دون تحديد، ليشمل النبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنين والمشركين، وجميع عباده منذ نزول هذه الآية العظيمة إلى أن يُفنِي اللهُ تعالى الأرضَ ومن عليها بقيام الساعة. وهو سؤال استنكار لمن لا يتدبر ويستدل بالمخلوقات على عظمة الخالق، ودقة تدبيره، وعظيم سلطانه، ورحمته بعباده، وكذلك هو سؤال تعجب ممن لم يتدبر ويتعظ ويستدل به على وحدانية الله تعالى.

ثم يذكر سبحانه وتعالى الحدث الكوني العظيم الذي يشاهده ويعايشه الإنسان طيلة حياته ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ ﴾ أي: ألم تر أيها الإنسان وتشاهد ببصرك وحواسك هذه القدرة وهذا التسخير، وهذه الآية العظيمة، إذ يُدخل ربك جزأ من الليل في النهار، وجزأ من النهار في الليل بدقة متناهية. والولوج، هو: الإدخال، ومنه: ولج فلان منزله أي دخله. أي يُدخل ما نَقَص من ساعات الليل في ساعات النهار، فيزيد من نقصان هذا في زيادة هذا. ويُدخل ما نَقَص من ساعات النهار في ساعات

الليل، فتزيد في ساعات الليل ما نقصت من ساعات النهار. حتى يكون الليل خمس عشر ساعة، والنهار تسع ساعات، وتُدخل النهار في الليل، حتى يكون النهار خمس عشرة ساعة، والليل تسع ساعات.(١) ويشمل كذلك دلالة تدرج دخول الليل في النهار، وتدرج دخول النهار في الليل بدقة غاية في الإعجاز. فإن الذي أولج الليل في النهار، وأولج النهار في الليل بهذه العظمة الرهيبة؛ فإنه هو لا غيره الذي يستحق العبادة وحده لا شريك له، وأنه القوي، فلا يعجزه شيء أبداً، غير أن يقول للشيء: كن فيكون.

ثم يلفت سبحانه وتعالى الانتباه إلى ما سخره للعباد في الكون من مخلوقات، حتى ينتفعوا بها. فقال تعالى ﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ كُلٌّ يَجۡرِي إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ فإن من نعمة ربكم عليكم هو تسخير الشمس والقمر، فترونها بحركتها، وتعاقبها، وعظمتها، من غير فتور ولا خلل، بل طائعتين في خضوع وقهر لمراد الله تعالى، فإن الذي سخر الشمس والقمر هو الذي رفع السماء بغير عمد ترونها، وهو رب العرش العظيم الذي لا ترونه بأعينكم، ولكن تصدقون به قياساً على عظمة مخلوقاته، أفلا تؤمنون؟ والشمس والقمر التي هي أظهر الكواكب تسير أمام أعينكم بدقة وإعجاز ﴿كُلٌّ يَجۡرِي إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ فكل منها يسير جرياً منتظماً، إلى وقت مقدر ومؤقت ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ وهو وقت انتهاء الحياة الدنيا. فحركة الشمس وحركة القمر تتعاقب في سيرها من غير خلل إلى أن يحين الوقت المحدد لانتهائها، فلا تتأخر ولا تتقدم، وكلمة التسخير، تفيد التطويع والإخضاع والقهر، فتسير منقادة بأمر ربها لتحقيق مصالح خلقه، وذللها لمنافعهم، فيعرفون بها الليل والنهار، والحساب، والأوقات، ويستضيئون بنورهما، وغير ذلك من المنافع. بل وكل ذلك الخلق والتسيير الدقيق هو إلى وقت محدد ومعلوم، وهو فناء الدنيا يوم القيامة، والتي لا يعلم وقتها إلا الله جَلَّ في علاه.

فإن هذا الإخبار هو لفت النظر إلى كمال قدرته عَزَّ وجل؛ بما يراه الْمُخَاطَب من تَحَكُّمُهُ عَزَّ وجل في الليل والنهار، فيولج الليل في النهار، ويولج النهار في الليل؛ على وتيرة دقيقة في أوقاتها. والتي توضح وتبين قوته جَلَّ جلاله، وعظيم قدرته، وعزة سلطانه عَزَّ في علاه، سبحانه وتعالى، فإن الذي يتحكم في هذا الشأن العظيم، بهذه العظمة وهذه القدرة، فإنه قادر على كل شيء، ومن ذلك إهلاك من عصى، ولم يطع رسوله صلى الله عليه وسلم.

فورد البيان بأسلوب الالتفات إلى قدرة الخالق بما يبين بها قوته وقهره وعزته. مما يفيد في الجانب التعليمي والوعظ والإرشاد أهمية بيان ما في الكون من عظمة التدبير، وعظمة السلطان، والتغيير، والترهيب والترغيب، فإن فيها مواعظ. وهنا يظهر تناسق التداخل بين الليل والنهار، وبين النهار والليل بصورة عجيبة، تبين قوة قدرة الله تعالى وعظيم سلطانه، وقوة قهره، وقدرته على التغيير بما يشاء، فلا يتقدم منها شيء، ولا

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٥/٣٠٤-٣٠٥)

يتأخر منها شيء البتة. بما يدل على عظيم مُلْك الله تعالى، وعظيم قدرته وسلطانه، وجمال وكمال تصرفه، فينزع مما أعطاه النهار من ساعات، ليعطيه الليل بحكمه وقدرته، وينزع ما أعطاه الليل من ساعات، فيعطيه النهار بحكمته وعظيم قدرته، فتراها في عملية دؤوبة دقيقة؛ ومتدرجة، وفي صورة مذهلة لمن تأملها، بل ويُدخل الليل على النهار عند مجيئه بتدرج عظيم عجيب، وكذلك يدخل النهار عند مجيئه على الليل بتدرج عظيم عجيب، وفي نسق لا تنازع بينهما فيه. لتتجلى ملكية الله تعالى، وعظيم تدبيره وقدرته وتصرفه في ملكه، فلا يعجزه البعث بعد الموت، ولا شيء أبداً. فانتبهوا أيها العباد لقدرة الله تعالى، وانتبهوا من الظلم، وفي نفس الوقت اطمئن أيها المظلوم من عودة حقك لك بقدرة الله تعالى وحكمه وانصافه. مما يفيد الحذر من المعاصي، واليقين بأن الله تعالى سيجازي كلاً بعمله، وسينصر المظلوم فرداً كان، أو جماعة، أو أمة من الأمم.

ثم يختم الله تعالى بتقرير علمه بأعمال العباد ﴿ وَأَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ﴾ فيا أيها الناس إن الله تعالى بكل ما يكون منكم عليم به، فلا تخفى عليه خافية منكم، ما ظهر وما بطن منكم. لتشمل السرائر والنوايا، وما يتحدث به القلب، ولم ينطق به. مما يفيد احذروا من سيء الأعمال، وعليكم بأطيب الأعمال فإنها لا تخفى على ربكم جَلَّ جلاله. والخبير في قوله عَزَّ وجل ﴿ وَأَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ﴾: هو إحاطة علمه سبحانه وتعالى بظواهر الأشياء وبواطنها. وعالم بمواقع الأمور، وخفايا الأشياء. فمن كانت هذه صفاته المجيدة سبحانه وتعالى، فإنه يحصي عليكم حتى دقائق أعمالكم، فلا يفوت منها شيء، من خير أو شر، وأنكم محاسبون ومجزون على ذلك. ففي ذلك ترغيب في عمل الصالحات مهما صغرت، وترهيب من المعاصي مهما خفيت وصغرت.

ومن دقائق البيان أنه سبحانه وتعالى بفضله جعل مناط الحساب على الأعمال، إذ خص الأعمال فقط، بالرغم من علمه بما يُسر العباد به، وبما يبطنون، لإفادة أن المحاسبة كائنة على العمل، وما يتكلم به العبد، أما البواطن فإن لم تتحول إلى عمل فلا تكن مما يحاسب عليه العليم الخبير. قال صلى الله عليه وسلم (إن الله تجاوز لي؛ عن أمتي ما وسوست به صدورها، ما لم تعمل أو تكلم)[1] فاحذروا أن تتحول ما في قلوبكم من الوساوس الرديئة إلى أعمال، بالرغم من أن دلالة معنى الخبير ﴿ خَبِيرٞ ﴾ تشمل كمال العلم بالظاهر والباطن. ولكن يتجاوز ربنا بفضله ورحمته عما في الصدور. فإن الله تعالى يعلم كل شيء حتى دقائق ما يكون من العبد، مما يظهر، ومما يغيب، كأعمال القلوب، والخواطر. ولكن برحمته أوقع دلالة لفظ الخبير على أعمال العباد الظاهر ﴿ وَأَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ﴾ وهذا من فضله وكرمه عَزَّ وجل.

(١) البخاري، الجامع الصحيح (٢/٢١٥) برقم (٢٥٢٨)

ثم يؤكد سبحانه وتعالى على ما سبق من البيان بأن هذا الإعلام لكم هو لإظهار عظمته؛ وكمال قدرته، وصفاته العظيمة الجليلة ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ ﴾ ذلك بأن ربكم هو الإله الحق، الذي ليس من دونه إله أبداً، ليبطل بذلك جميع أنواع الشرك، وأن ما يدعون من دونه من المعبودات باطلة، وليست بحق.

وقد استهل تبارك وتعالى التوجيه الكريم باسم الإشارة ﴿ ذَٰلِكَ ﴾ للعودة بالمخاطبين إلى ما سبق من البيان، أي: إلى ما تقدم ذكره من إيلاج الليل في النهار، وإيلاج النهار في الليل، ليتأكد ويتبين لكم أيها العباد ﴿ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ ﴾ فكل ما سبق من أدلة قدرته عَزَّ وجل هو من أجل أن يتبين ويتأكد لكم بأن الله سبحانه وتعالى هو الحق ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ ﴾ هو الإله الحق، الذي ليس من دونه إله أبداً، ليبطل بذلك جميع أنواع الشرك، بقوله عَزَّ وجل ﴿ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلْبَٰطِلُ ﴾ وأن كل ما يُعبد من دونه هو الباطل بعينه، فجميع المعبودات لا تستطيع أن تصنع مثل ما صنع سبحانه وتعالى: من إيلاج الليل في النهار، وإيلاج النهار في الليل، فليس لِمَا يُعبد من دون الله تعالى أي قدرة من ذلك، بل عاجزة لا تقدم ولا تؤخر. مما يدل على بطلانها.

ثم يؤكد جَلَّ جلاله على علوه عَزَّ وجل: شأناً، ومكاناً، ومكانة، وسلطاناً، وقدرة على خلقه أجمعين ﴿ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ ﴾ فإن الله تعالى هو ﴿ ٱلْعَلِيُّ ﴾ الذي لا يعلو عليه شيء من خلقه، وهو كذلك ﴿ ٱلْكَبِيرُ ﴾ الذي لا كبير يكبره، فكل شيء هو دونه، مخلوق له، ومقهور بسلطانه، بل جاء القصر بذلك عليه جَلَّ في علاه ﴿ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ﴾ والتي تفيد هو لا غيره ﴿ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ ﴾ لا أعلى منه أبداً، فهو عليٌّ في مكانه ومكانته وقدسيته وشرفه وملكه وسلطانه وقهره وإنعامه، وهو ذو العلو على كل شيء، وكل ما دونه ملكه، ومتذلل ومنقاد له عَزَّ في علاه، وأنه أكبر من كل شيء، فكل شيء خاضع ومتصاغر، وذليل له عَزَّ وجل. وهو الكبير في سلطانه على الإطلاق، فهو عظيم الشأن، وأعظم شيء سبحانه وتعالى.

وبهذا يكون قد كشف الله سبحانه وتعالى بطلان ما يُعبد من دونه بالحجج والبراهين؛ التي تُظهر انفراده عَزَّ وجل بالألوهية والربوبية بما خلق من الكون، وبطلان كل معبود غيره عَزَّ وجل، بعجزها العجز التام والكامل. وبالتالي كيف تعبدون العاجز، وتتركون القادر، وكيف تجعلون العاجز شريكاً في ملك القادر القهار. فهو استدلال بواقع المشاهدة، وواقع المحسوسات، مما يبين أن منهج الإسلام مبني في الإقناع على الحقائق، وليس على التوقعات والأوهام، فدين الله تعالى واضح المعالم، والمنهج، وأنه قوي في استدلاله وحجته وبراهينه.

وفي نسق عجيب لهذه الآية الكريمة أنها بدأت بمثل ما بدأت به الآيتين السابقتين لها. إذ من جميل دقائق البيان وبراعته، وحلاوة السياق، أن بدأ مطلع الآيات الثلاث المتتاليات باسم الإشارة ﴿ ذَٰلِكَ ﴾ في نسق متتالي عجيب. فبدأت هذه الآية الكريمة كذلك بمثل ما بدأت به الآيتين السابقتين لها، ثم أكد سبحانه وتعالى بأنه الحق بحرف التأكيد ﴿بِأَنَّ ﴾ الذي يؤكد ما بعده، بأن الله جَلَّ جلاله هو الحق. ثم تكرر في الجملة التي تليها مزيد التأكيد ﴿ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلْبَٰطِلُ ﴾ ثم يتكرر التأكيد مرة ثالثة ﴿ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ ﴾ تأكيداً على أنه سبحانه وتعالى هو صاحب العظمة والعلو، وأن كل شيء متصاغر له ولعظمته وهيبته، فهو أكبر من كل شيء، وأعظم من كل شيء، وهو القاهر فوق عباده. فلا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار.

ثم يلفت الله تعالى بهذه الآية الكريمة إلى بيان فضله وإنعامه على عباده، بما سخره لهم من المخلوقات، والتي منها البحر، حتى جرت السفن فيه بنعمته وفضله ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِنِعْمَتِ ٱللَّهِ لِيُرِيَكُم مِّنْ ءَايَٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾ ألم تر أيها الإنسان من آثار قدرته ورحمته عَزَّ وجل أن السفن تسير جرياً في البحار بنعمته وفضله على خلقه، ليريكم من عظيم خلقه وقدرته، وفضله عليكم. فإنها نعمة وآية تستوجب منكم توحيده وإفراده بالعبادة، وطاعة رسوله صلى الله عليه وسلم.

وبدأت الآية الكريمة بشد الانتباه عند الْمُخَاطَب بجملة ﴿ أَلَمْ تَرَ ﴾ التي تفيد الاستفهام على سبيل التقرير بما هو معروف ومحسوس ومتقرر عند الْمُخَاطَب من التسخير العظيم. فَيُلْجِئُهُ بذلك إلى الحقيقة والبرهان والدليل المحسوس الذي يراه في البحر، فيشاهده بعينه وبصيرته، ويستفيد منه في شؤونه المختلفة. وورد الخطاب الاستفهامي ﴿ أَلَمْ تَرَ ﴾ دون تحديد وتعيين فرداً بعينه من الْمُخَاطَبِين ﴿ أَلَمْ تَرَ ﴾ ألم تشاهد أيها المخاطب، دون تحديد، ليشمل جميع عباده منذ نزول هذه الآية العظيمة إلى أن يُفْنِى اللهُ تعالى الأرضَ ومن عليها بقيام الساعة. وهو سؤال استنكار لمن لا يتدبر ويستدل بعظمة المخلوقات ودقة التدبير، ونعمة التسخير على عظمة الخالق، وعظيم سلطانه، ورحمته بعباده، وكذلك هو سؤال تعجب ممن لم يتدبر ويتعظ ويستدل به على وحدانية الله تعالى.

ثم يذكر سبحانه نوعاً من مفردات التسخير التي لا تُعد ولا تحصى، وهي نعمة تسخير السفن التي تَعْبُر البحار، وتنقل الناس والمتاع ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِنِعْمَتِ ٱللَّهِ ﴾ ألم تشاهد أيها المخاطب

تلك السفن وهي تعبر البحر بقدرة الله تعالى وفضله عليكم؟ سؤال يستثير التأمل والتفكر، ليستنتج من الدليل الكوني لجريان السفينة على كمال قدرة الله تعالى، ونعمة التسخير للعباد.

فإن من أوجه التسخير أن السفن التي تحملكم وتحمل أمتعتكم وتجارتكم لا تسير في البحر السير الخفيف فقط، بل ﴿تَجْرِى﴾ في البحر، بما يحقق لكم سرعة الانتقال، وتخفيف المشقة. فلولا هذا التسخير مع نعمة الجريان في البحر لأصبح التنقل عليكم شاقاً ومتعباً ومكلفاً، وربما انعدم عليكم تحقيق الكثير من مصالحكم، ولما استطعتم عليه إلا بشق الأنفس. وهذا الجريان ليس بأمركم ومشيئتكم الكونية، بل ﴿بِنِعْمَتِ ٱللَّهِ﴾ بما يفيد أن جميع التسخير كان بأمره، وبتفضل منه عَزَّ وجل، وبنعمته عليكم سبحانه وتعالى، ولو شاء لم يكن ذلك. فقد جعل من نعمته عليكم هبوب الرياح لتكون سبباً في جريان السفن، وسخر البحر بنعمته عليكم لتجري فيه السفن بفضله وإنعامه عليكم. وهداكم بنعمته لصناعة الفلك بفضله وهديه وتوفيقه. مما يوجب عليكم التفكر والتأمل الذي يتحقق به توحيد ربكم وطاعته، والامتثال لرسوله صلى الله عليه وسلم.

وتنتهي الآية الكريمة بخاتمة عظيمة غاية في الوعظ والإرشاد ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَـٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ إن في ذلك التذكير بما سخره لكم ربكم سبحانه وتعالى من جريان السفن في البحر بنعمة الرياح التي أنعم بها عليكم ﴿لَءَايَـٰتٍ﴾ أي: لدلالات عظيمات، دالة على وحدانية الله تعالى، وكمال قدرته، وقوته وعزته، وعظيم سلطانه، وصِدْق الرسالة والرسول الذي أُرسِل بها صلى الله عليه وسلم ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَـٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ فإن في التذكير بآيات ربكم الكونية والآيات التي جاء بها الرسول صلى الله عليه وسلم، وما تضمنته من غايات وأهداف لإخراجكم من الظلمات إلى النور، فإنها لآيات كافيات لمن جمع بين الصبر والشكر ﴿لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ فتلك الآيات كافية لكل من جمع بين خصلتي الصبر والشكر، في أن يؤمن ويصدق، ويُقلع عما ورثه عن أسلافه من الشرك، وعموم الباطل.

مما يفيد أن الاعتبار بالآيات والحجج يستلزم لزوم عاملين مهمين، هما: الصبر والشكر، وأن طاعة الله تعالى تقوم على الصبر في الضراء، والشكر في السراء. بل جاء الصبر بصيغة المبالغة ﴿صَبَّارٍ﴾ التي تفيد كثرة الصبر، وتكراره ولزومه، فالإنسان الصبار، هو الكثير الصبر إلى حد المبالغة في التزامه به. وكذلك ﴿شَكُورٍ﴾ فإن الإنسان الشاكر هو الذي يكون كثير الشكر، المبالغ في كثرة الحمد والثناء على الله تعالى،

بشكره على ما أنعم من النعم التي لا تُعد ولا تُحصى. فصاحب هاتين الخصلتين منتفع بآيات الله تعالى في ترك المألوف من الباطل، ولزوم الحق والسير في ركابه.

مما يفيد أن المنتفع بتلك الآيات هو من صبر في الضراء، وصبر على ترك المألوف من الشرك والباطل، وأخذ بزمام الحق، وشكر الله تعالى على ما أنعم، ومنها نعمة الرسالة التي جاءكم بها رسولكم محمد صلى الله عليه وسلم. لتفيد أهمية الصبر والشكر في ترك الكفر والتمسك بمنهج الله تعالى، فشملت ركيزتي التخلي والإقدام، فصبر عَمَّا تهواه النفس واعتادت عليه من الباطل والفجور، وصبرت عن المعصية، وأقدمت ولزمت الطاعة والصبر عليها، واستيقنت واستشعرت نعمة الله تعالى فيما أعطى، وفيما أرسل وأمر، وفيما رزق وأنعم من الحياة والهداية الموصلة لحسن الخاتمة والجنة، وفيما سخر لكم من الآيات الباهرة، وفيما رزق من الإنعام في المال والأبدان والأولاد، وغيرها من نعم الله تعالى التي لا تُعَد ولا تُحَد، مستشعراً لعظمتها فيشكر ربه عليها، فإن الصبر والشكر كافية لمن تحلى واتصف بهما، لينجوا من موجبات العذاب والهلاك.

ثم يذكر تبارك وتعالى المزيد من شناعة المشركين ولؤمهم، ويكشف عن معرفتهم الحق ولكن عنه يستكبرون، فقال تعالى ﴿ وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ ﴾ فإذا غشيهم الموج عند ركوبهم السفن لتحملهم وتنقلهم إلى مرادهم، وأحسوا بخطر الأمواج عند إحاطتها بهم، فإنهم يتخلون عن معبوداتهم من الأوثان ويلجؤون إلى الله تعالى وحده لا شريك له، بالدعاء والتضرع ﴿ وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ﴾ فإن حالهم في مراكبهم من السفن إذا أصابهم الله تعالى بالرياح والأمواج العاتية، وخافوا الغرق والموت، نبذوا معبوداتهم وأخلصوا الدعاء لله تعالى وحده لا شريك له ﴿ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ﴾ فتجردوا من معبوداتهم من الأصنام وغيرها من كل معبود من دون الله عَزَّ وجل، فتوجهوا بالدعاء الخالص إلى الله تعالى، دون أن يشركوا معه جَلَّ جلاله أحداً من معبوداتهم. بما يفيد معرفتهم بأنه لا ينجيهم إلا الله سبحانه وتعالى، وأن معبوداتهم من الأصنام وغيرها لا تنفعهم بشيء وقت الشدائد، فلا تدفع عنهم بأساً، ولا تجلب لهم خيراً، ولا تنجيهم مما يحل بهم من دواهي الأمور. فإذاً لماذا تعبدونها؟ ولماذا تتركون عبادة الذي ينجيكم من كل كرب؟ فمنطقهم يُثبت معرفتهم للحق، ولكنهم قوم يستكبرون، ويستعلون بأنفسهم، بما يفيد أن الكبر إذا مَكَّنَه الإنسان من نفسه منعه من الخير والحق. فاحتاجوا إلى الصبر عما ألفوه من الباطل، والصبر عن الاستعلاء، والصبر على التواضع للحق، والصبر على الطاعة والامتثال لله تعالى، وشكره على أن هداهم وبين لهم الطريق المستقيم.

ومن دقائق السياق أن استغنى البيان عن ذكر ركوبهم البحر بالسفن لدلالة غيره عليه، وهو غشيان الموج لهم ﴿ وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ ﴾ فغشيان الموج لا يكون إلا في البحر. ووصف الموج من قوته بأنه ﴿ كَالظُّلَلِ ﴾ التي قُصد بها بيان قوة الأمواج وصورتها بأنها كانت كالجبال والغمام من قوتها وارتفاعها وضخامتها وظلمتها. فهو وصف يبين قوة ما أصابهم، والفزع الذي حل بهم، والذي يوحي لهم بأنه لا نجاة منه إلا بفضل من الله تعالى.

بل ومن عنادهم أن حالهم عند النجاة هو العودة إلى الشرك، ليفيد أنهم قوم متعالين ومتكبرين عن قبول الحق الذي أيقنوه تمام اليقين ﴿ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ ﴾ فبعد أن نجاهم تبارك وتعالى من أمواج وهيجان البحر، وأوصلهم إلى البر انقسموا إلى فريقين: فريق توسط في كفره ﴿ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ ﴾ قال ابن جرير الطبري رحمه الله تعالى: فمنهم مقتصد في قوله وإقراره بربه، وهو مع ذلك مضمر الكفر به. وعن مجاهد رحمه الله تعالى: المقتصد في القول وهو كافر[1] أي أنه أقل درجة في كفره. والفريق الثاني عاد إلى ما كان عليه من الشرك، وجحود ما أنعم الله تعالى عليهم من النجاة ﴿ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ ﴾ فهذا الفريق جحد آيات ربه، من الأمواج العاتية التي غشيتهم حتى أحاطت بهم، وعاينوا الهلاك، وكذلك جحدوا آية النجاة، وآية تفريق الأمواج عنهم، وإبعادها عنهم، وإبعادهم عنها. ووصفهم الله تعالى بوصفين يعبران ويوضحان معدنهم. الأول: ﴿ خَتَّارٍ ﴾ وهو الشديد الغدر، ونقض العهود. والثاني: ﴿ كَفُورٍ ﴾ الذي يجحد المعروف، والنعمة. فما يجحد بآيات الله تعالى إلا من اتصف بهذين الوصفين الذميمين. مما يفيد في التفاعل والتعامل الاجتماعي بأنه إذا كان هؤلاء قد اتصفوا بهذا مع الله تعالى الذي نجاهم بعد أن أدركهم الهلاك من الغرق، فكيف هم مع غيرهم من الناس. مما يفيد أن هناك أناس قد استولى عليهم العناد والاستعلاء في تعاملهم حتى مع غيرهم. مما يتطلب الحذر منهم، والحكمة عند التعامل معهم.

فإذا بأصحاب هذا النوع يعودون إلى الشرك، ويتركون من كانوا إليه يجأرون بالدعاء الخالص له سبحانه وتعالى. فالذي نجاهم في البحر هو الذي ينجيهم في البر، وكما أن البحر ليس بمأمن لكم من العذاب، فكذلك البر ليس بمأمن لكم من وقوع ما تكرهون من الشر، ومن العذاب. مما يكشف حقيقة المعاند الذي إذا أدخل العناد في قلبه وفكره جعله يكابر عن أن يخرج مما هو فيه، ظلماً لنفسه، وظلماً للحق منه، وعناداً واستكباراً. فاحتاج إلى قوة الصبر وقوة الإرادة للخروج من المألوف الفاسد الباطل. وشكر الله تعالى على نعمة بيانه للحق. وهو ما ذكره قبل ذلك سبحانه وتعالى بقوله جَلَّ شأنه ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾

---

(1) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (١٨/٥٧٩-٥٨٠) *

فاحتاج الأمر للصبر والشكر. مما يفيد أهمية الحذر من الاستكبار والعناد بالباطل، فإنه إذا صار سمة لأحد من الناس فقد لا يستطيع أن يتحرر منه، فيبقى في قبضته وشدته.

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ وَٱخْشَوْاْ يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿٣٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ ﴿٣٤﴾ ﴾

ينتقل البيان الكريم إلى تحذير الناس من المآل الذي سيؤولون إليه في آخرتهم، حين لا ينفع مال ولا ولد، ولا جاه إلا أعمال الإنسان التي كسبتها يداه ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ وَٱخْشَوْاْ يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴾ نداء من الله تعالى لكافة الناس ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ﴾ ليشمل كافة جنس الإنسان، المؤمن، وأهل الكتاب، والمشركين، وعموم الكافرين. ويتضمن أسلوب النداء تعميم جنس الإنسان عبر الامتداد الزمني في مخاطبته لجميع الأجيال المتعاقبة، ابتداء من الذين هم في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم، إبان وأثناء نزولها إلى من بعدهم حتى قيام الساعة. فالمُخَاطِب للناس هو ربهم وخالقهم، والمُخَاطَبُون هم الناس عموماً، ومضمون الخطاب هو التزام التقوى ﴿ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ ﴾ وسبب وعلة النداء لهم بالخطاب الذي يدعوهم للتقوى هو التحذير من يوم الساعة ﴿ وَٱخْشَوْاْ يَوْمًا ﴾ فإنه يوماً تتعاظم فيه أهوال وأحداث القيامة.

وقد بدأ خطاب الله تعالى لعباده بالنداء لهم ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ﴾ فيكون مع بقية السياق يحمل النداء التحذيري الذي يفيد الشفقة والرحمة بهم من أن ينالهم العذاب؛ إن لم يستجيبوا لربهم تبارك وتعالى. وفي مخاطبتهم بأسلوب النداء ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ﴾ ما يسترعي أسماعهم، وشد انتباههم، ولَفْتِه لأمر عظيم جليل، فيستدعي أسلوب النداء إثارة آذان الْمُخَاطَبِين للإصغاء والاستماع، وشد عقولهم للانتباه إلى ما بعده من كلام وخطاب، مما يدل على أهمية ما ناداهم إليه ربهم تبارك وتعالى من البيان والانذار، وما يجب عليهم من الانتباه له باهتمام شديد، وأخذه بكمال تعقل أولي الألباب. وكان الْمُنَادَى لَهُ هو تحقيق تقوى الله تعالى ﴿ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ ﴾ الذي يتضمن الخشية والخوف منه عَزَّ وجل والعمل بطاعته، واجتناب ما نهى عنه وزجر.

فاتقوه عن علم ورغبة ورهبة ومحبة له عَزَّ وجل، حيث ارتبطت التقوى بربوبيته ﴿ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡ﴾ فهو ربكم، إذ أن كلمة ﴿رَبَّكُمۡ﴾ تُقَرِّر للناس ربوبيته سبحانه وتعالى، حتى في بنية الكلمة، وذلك بإضافة ضمير المخاطبين إلى كلمة الرب، التي يتقرر بها أن الله تعالى ربكم، وما يلزمكم ويجب عليكم من تقواه، كما أن في تلاصق وترابط وتتابع كلمة التقوى بكلمة ربكم ﴿ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡ﴾ ما يفيد استحقاق التقوى منكم له وجوباً. إذ أن الرب هو المربي لجميع العالمين بهديه ونعمه، فهو الذي رباكم بالنعم وبما ترونه من ملكوته الدال على ألوهيته، وعظيم سلطانه سبحانه وتعالى، حيث عَرَّفَهُم منشأهم ونشأتهم، ثم وجههم تبارك وتعالى إلى عظيم ما سيقع لهم، فاحذروه.

ثم يعطف تبارك وتعالى على الأمر بتقواه الخشية والخوف من ذلك اليوم الذي يتوقف فيه انتفاع الوالد بالولد، والولد بالوالدين، وبكل شيء، إلا بما قدمت يداه من العمل ﴿وَٱخۡشَوۡاْ يَوۡمٗا﴾ وخاوفوا واحذروا ﴿يَوۡمٗا﴾ وهو يوم القيامة، يوم الحساب والجزاء، ذلك اليوم الذي ﴿لَّا يَجۡزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ﴾ أي: لا يستطيع والد أن ينفع ولده بأي شيء من أنواع النفع في ذلك اليوم الذي هو يوم القيامة، فكل مشغول بنفسه. مع أن الوالد أكثر الناس شفقة وعطفاً، غير أن ذلك اليوم مختلف عن أيام الدنيا في كل شيء.

وفي المقابل كذلك ﴿وَلَا مَوۡلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيۡـًٔا﴾ وكذلك لا يستطيع الولد أن يدفع عن والده شيئاً، بجلب نفع أو دفع ضر، بالرغم من قوة المحبة للوالدين، والشفقة من أن ينالهم ما يكرهون، ليتبين أن أحوال الآخرة مختلفة عن أحوال الدنيا. فكل بنفسه مشغول ذلك اليوم. فهو واقع أيها الناس وسوف تعيشونه، حيث يتوقف فيه العون والمساعدة، حتى من البر بين الأولاد ووالديهم، وتتوقف العاطفة التي أذهلها وأشغلها ما هو أمامها من أهوال يوم القيامة، فانشغل كل بنفسه وبشأنه، ترقباً لما سيكون من حاله ذلك اليوم. وفي هذا إنذار من الله تعالى لعباده من ذلك اليوم قبل أن يلقوه ويشاهدونه، ويعيشون أهواله. وهذا من رحمة وعدل الله تعالى في عباده أن أنذرهم بما سيكون عليه حالهم. مما يستوجب من العباد اغتنام فرصة الحياة الدنيا، والعمل فيها بما يحقق لهم النجاة.

وقد أوضح سبحانه وتعالى ذلك الهول من يوم القيامة بانتفاء النفع بأقرب صلة بين البشر، وهي صلة الأصل بالفرع، والفرع بالأصل، فليس هناك أقرب من صلة الوالد بولده، والمولود بوالده. فإنه الوقت الذي ينشغلون عن بعضهم البعض، لشدة ما يرون أمامهم من أهوال يوم القيامة. فإذا انتفى النفع بين أقرب الأقربين، فكيف بمن هم دونهم في الصلة والقرابة والصداقة، فإنها أبعد في الانتفاع. مما يوجب الحذر من جميع العلاقات الفاسدة، والعمل بالاستقامة على دين الله تعالى. ومن دقائق البيان الكريم أن كلمة الوالد تشمل الوالدين معاً، وكلمة الولد تشمل البنين والبنات.

ثم بعد وعظ الناس بأدق دلائل أهوال يوم القيامة من امتناع النفع بين الناس، وقوة الذهول التي تذهل الوالد عن ولده، والمولود عن والده، يأتي تقرير الله تعالى بأن ما وعد به عن ذلك اليوم فإنه متحقق ﴿إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ﴾ وهذا جزم وحزم من الله تعالى بتحقق ذلك اليوم، الذي يتم فيه البعث والحساب، والثواب والعقاب. ثم يأتي الوعظ باغتنام فرصة الانتفاع من الحياة الدنيا للآخرة ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ﴾ فلا تنخدعوا بمظاهر الحياة الدنيا، وزينتها وزخرفها، فتنشغلون فيها بما تُعَاقَبُون عليه يوم القيامة، فتهجرون وتتركون طاعة الله تعالى، وتنشغلون بأهوائكم وملذاتكم. بما يفيد أحسنوا الاستعداد لذلك اليوم بالاجتهاد في طاعة الله تعالى، والتزام منهجه. وفي هذا البيان من الله تعالى ما يفيد أن الدنيا بزنتها وشهواتها تغرر بالإنسان، فاحذروا منها، واصبروا على الطاعة، وكونوا أقوياء الإرادة في طلب الخير والصبر على طلبه والقيام به، والصبر عن المعصية، ومجاهدة النفس على الحق والخير، للفوز بالحياة الآخرة. واشكروا ربكم على بيانه لكم بالحقائق من البراهين والدلائل الناصعة. فهي موعظة عظيمة من الله تعالى لعباده. وفي ذلك إثبات أن الدنيا مليئة بما يغرر الإنسان، مما يجعل مجاهدة النفس من أقوى مطالب الدنيا، وأنها عبادة عظيمة لمدافعة الغرور والتغرير الباطل. فنسأل الله تعالى بأن لا نكون ممن غرتهم الحياة الدنيا.

ثم يحذر الله تعالى عباده تحذيراً عاماً من أن يخدعهم خادع عن الآخرة ﴿وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴾ ولا يخدعنكم بالله خادع، قال ابن جرير الطبري رحمه الله تعالى: والغَرُورُ بفتح العين، هو ما غَرَّ الإنسان من شيء، كائناً ما كان، شيطاناً كان أو إنساناً، أو دنيا[1] فلا يغرنك بالله تعالى أي: نوعٍ، أو أي سبب من أسباب وأنواع الغرور. مما يُوجب الحذر من كل غرور يستهوي النفس ويدفع الإنسان نحو الشهوات المحرمة، والشبهات الفاسدة، والتأويل الرديء، والإغراء المقيت.

وقوله تعالى ﴿وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴾ قوة مانعة إذا جعلها الإنسان في قلبه وباله، واستحضرها في كل موقف يدعوه إلى الغرور. فعندما يستدعيه داعي الشهوات له، يقول لنفسه محذراً لها ﴿وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴾ وعندما يستدعيه الداعين للشبهات والخروج عن مراد الله تعالى، يصد دعوتهم بقوله عَزَّ وجل ﴿وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴾ وعندما يرى غيره اغتر أو اقترب من دوائر الغرور يعظه بقوله تعالى ﴿وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴾ فهي موعظة عظيمة الأثر في تقوية الإرادة أمام مغريات الدنيا التي لا حصر لها، ولا حصر لمواقع فتنتها: في المهنة، وأمام الناس، وفي الخلوات، وعند حصول

[1] الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٥٨٢/١٨)

النعمة، وعند القدرة على الباطل والفساد، وعند القدرة على إشباع الشهوات بالحرم، وأكل الحرام، وظلم الغير، وتحصيل التعالي والتباهي، والمفاخر الباطلة. فالحمد لله على نعمة مواعظه، وأساليبها، وتنوعها، وقوة أثرها وتأثيرها.

ثم يختتم الله تعالى سورة لقمان بإخباره عَزَّ وجل بما استأثر به لنفسه، وطواه عن غيره من الغيب، وخصه وحصره لنفسه عَزَّ في علاه. فقال جَلَّ جلاله ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ ﴾ حصر وقصر سبحانه وتعالى خمس مذكورات بعلمه، وجَهْلُ غيرهُ بها، كائن من كان. وبدأ ذلك البيان العظيم بحرف التوكيد ﴿ إِنَّ ﴾ الذي يؤكد حصر وقصر علم الله تعالى للخمس المذكورات عنده فقط، وتلاها لفظ الجلالة ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ﴾ المخصوص بعلم المذكورات الخمس، ثم التعيين لها بأنها ﴿ عِندَهُۥ ﴾ والتي تفيد التعيين والتخصيص لتلك المذكورات الخمس، فهي عنده، لا يعرفها أحد من خلقه سبحانه وتعالى. وأولها: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ ﴾ فعلم الساعة لا يعرف موعدها أحد من الخلق إلا الله سبحانه وتعالى. والثاني: ﴿ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ ﴾ فسبحانه وتعالى هو الذي ينزل الغيث، فلا أحد يستطيع تكوين السحاب، وجمعه، وسَوقُه للمكان الذي يريد إلا الله عَزَّ وجل. وكذلك هو وحده سبحانه وتعال الذي يعرف وقت نزوله، ومدة مكوث نزوله، وكمية ما ينزل منه، فلا يعرف أحد تحديد ذلك بوقت، إلا عند ظهور علاماته، فيكون علم الناس مبني على التوقع.

والثالث: هو علم ما في الأرحام ﴿ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ﴾ فهو الذي أنشأ الجنين في الأرحام، وهو يعلم نوعه قبل إنشائه، ذكراً أو أنثى. فيقضي الله تعالى بما يشاء. حتى أن الأجهزة الحديثة من الأشعة لا يتبين لها ذلك إلا بعد تكوينه، وأما قبل خلقه وتكوينه فلا يتبين لهم ما هو نوع الجنين، فسبحان من استأثر بما يشاء.

والرابع: متعلق بقادم حال الإنسان: ﴿ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ﴾ فلا تدري كل نفس هل تعيش لغد فتكسب، أو تموت فلا تكسب شيئاً، وإن عاشت فلا تعلم ما لذي سَتُحَصّله في اليوم التالي من مكاسب في الدين، ومن مكاسب الأرباح والمنافع، والخسائر، والصحة، والمرض، وغيرها مما لا يُعد ولا يُحصى، إلا أن الإنسان يفكر وينوي لغدٍ، وقد يحصل على مراده، وقد لا يحصل على شيء مما فكر ونوى، أو قد يحصل على بعضه، وربما يحصل على أكثر مما فكر فيه وتوقعه. وربما حجب عَزَّ وجل عن عبده ما أراد،

وربما جعل عبده يحصل على ما لم يكن في حسبانه. ليعلم الإنسان عن عجزه في خاصة نفسه من التحصيل، أو أن يدفع عن النفس ما تكره وما لا تحب. فإن الله تعالى هو المدبر لشأن هذا الإنسان، ولتحصيله، مما يُوجب عليه عبادة ربه، والإخلاص له جَلَّ جلاله، وسؤال ربه سبحانه وتعالى، والالتجاء إليه، والتضرع له بأن يحقق له ما يطلبه من الخير، وأن يدفع عنه ما يخافه ويتوقعه، وما لا يتوقعه من الشر. وليدرك قوة فقره لربه عَزَّ في علاه. وأن إرادته مرهونة بإرادة الله تعالى، فما شاء كان، وما لم يشأ لا يكون أبداً، مهما عمل واجتهد الإنسان، وربما جنى عليه اجتهاده بضد وعكس ما طلب وأراد. ففيه تعليم للعبد عن قصور علمه عن خاصة نفسه، فكيف مع غيره؟ مما يستلزم الإيمان بالله تعالى وطاعته والالتجاء إليه في كل أمر وشأن، فلا حول ولا قوة لأحد إلا بالله سبحانه وتعالى.

والخامس: ﴿وَمَا تَدۡرِي نَفۡسُۢ بِأَيِّ أَرۡضٖ تَمُوتُۚ﴾ ومما استأثر به سبحانه وتعالى في شأن العبد هو مكان وزمن موته. فلا أحد من العباد يجزم بأن موته يقع في وقت محدد، أو في مكان محدد، فيعينه ويحدده بنفسه زمناً ومكاناً أو يعرف عنه ولو شيئاً يسيراً. فإن الله تعالى جَهَّل الإنسانَ بذلك، فهو وحده عَزَّ وجل الذي يعلم ذلك الأمر والشأن. وفي عدم علم العبد بزمن ووقت ومكان موته نعمة عظيمة من الله سبحانه وتعالى، بأن استأثر بها، حتى يعيش العبد حتى لحظة وفاته وهو في طمأنينة وراحة نفس، فلو أعلمه الله تعالى بساعة ولحظة وفاته لكان مهموماً خائفاً يترقب ذلك اليوم حتى ولو كان ذلك اليوم بعيداً، فكان إخفاؤه واستئثار الله تعالى بعلمه نعمة جليلة منه عَزَّ وجل على العباد.

كما أن في إخفاء تلك الأمور الخمس عن العبد ليظل مستمراً في علاقته وتعلقه بربه، ولتكون تلك المغيبات قوة دفع له في الحياة، ودافعاً وآية لأن يعبد الله وحده لا شريك له، وأن يدعوه ويلتجئ إليه في كل أمر وشأن، وليعرف أنه فقير لربه في كل شيء، وليعلم أن الله تعالى رب كل شيء ومالكه، وأنه هو المتصرف في الكون كله، حتى في شأن كل فرد بذاته. فهي دلائل على أن الناس عبيد لله تعالى، وأن الله تعالى هو العليم لا غيره، ثم ختم الله تعالى هذه الآية بما يؤكد دلالتها وحقائقها العظيمة، فقال عَزَّ وجل ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرُۢ﴾ إن الله تعالى عليم بكل شيء، في تفاصيله وعمومه، وما ظهر وما بطن.

فإن دلالة قوله تعالى ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ﴾ تفيد شمول وكمال العلم، بحيث لا تخفى على الله تعالى خافية. وسواء ما كان، أو ما سيكون. كما تفيد دلالة ﴿خَبِيرُۢ﴾ تأكيد كمال العلم بالتفاصيل، وشمولية كمال العلم بالظاهر والباطن، وبالتفاصيل الدقيقة. أي عالم بمواقع الأمور، وخفايا الأشياء. فإن الله تعالى يعلم كل شيء حتى دقائق ما يكون في الكون وما يكون من العبد، مما يَظْهَر، ومما يغيب، كأعمال القلوب، والخواطر. فالخبير زيادة في العلم بالخفايا. قال القرطبي رحمه الله تعالى: ﴿خَبِيرُۢ﴾ نعت ل ﴿عَلِيمٌ﴾ أو خبر بعد

خبر[١] فالخبير عليم، ومؤكدة لكمال العلم. فإنه سبحانه وتعالى عالم بمواقع الأمور، وخفايا الأشياء. فمن كانت هذه صفاته المجيدة فشأنه يستلزم طاعته وامتثال أمره عَزَّ وجل.

فإذا علم وأيقن الإنسان ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ جعله ذلك العلم العظيم، ملتجئاً إلى الله تعالى في كل صغيرة وكبيرة، لأنه مُوقن بأن الله تعالى يعلم أمره وشأنه، وأنه به عليم خبير، فيفوض أمره إلى الله تبارك وتعالى. كما يجعل منه هذا العلم استحضار مراقبة الله تعالى في تصرفاته وأحواله، بأن الله تعالى يراه، فيدفعه ذلك إلى الاجتهاد في السير على الجادة، خوفاً من معاقبة الله تعالى له. وإن عمل صالحاً أيقن أن الله تعالى يعلمه، وسيجزيه أجر ما صنع من الخير، فلا يحتقر معروفاً يقوم به، ولا يستخف بمعصية يمكنه القيام بها. فإن ذلك علم يربي في المؤمن الاستقامة، ويقوده للخير، ويضبطه ويمنعه عن الشر.

بل إنها قاعدة تربي المؤمن على الاستقامة، فإن منعته نفسه أو مانع عن فعل خير هو قادر عليه، ذكرها بقوله عَزَّ وجل ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ وإن استهواه أمر حرام قال لنفسه ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ وإن أراد غيره حراماً، ذكره بقوله تعالى ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ وإن أراد غيره الامتناع عن خير مقدور عليه، دفعه وحفزه بقوله تعالى ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ فمن صاحب هذا العلم في حياته صاحبه بالخير، ومنعه عن الشر والفساد، مما يبين نعمة القرآن العظيم في كل شأن من شؤون الإنسان. فالحمد والشكر لله العلي العظيم.

تم بحمد الله إتمام سورة لقمان، ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم، وتُب علينا إنك أنت التواب الرحيم.

والحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على نبينا محمد.

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٥٦/١٤)